التصوف وموقعه من الإسلام

لا يختلف المحققون من أهل العلم أن الجيل الأول من الصوفية كانوا على سبيل هدى ومنهاج حق ونتائج تقوى وكان مبلغين للدين الحق بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ولم يبلغ الناس أواخر القرن الثالث إلا وقد ظهر الخلل في جميع مجالي الإسلام العلمية والعملية في الحكم والسياسة والفقه والأصول والتفسير والتصوف ففي عالم السياسة كاد أن يفترق السلطان والقرآن وأما في الفقه فإن نظرة عابرة سريعة تكشف عن مواضع الخلل وآثارها في كتب بعض الفقهاء وممارساتهم مما يقضي عليهم بالخروج من دائرة الفقه بالكلية لقد تم إغلاق باب الإجتهاد وتم تحكيم القواعد المستنبطة على النصوص المحكمة وصار الفرع يرجع على أصله بالنقض وحصل توسع مديد في الرأي حتى كادت بعض مسائل الفقه أن تكون معبرة عن غير شريعة الإسلام وكذلك الأمر في علم الأصول وانظر تلك المواقف المزعجة من إقامة المعارضة بين العقل والنقل وكيف تمت استباحة حرمات معاني النصوص الشرعية بالتأويل والتعطيل أو بالتشبيه والتمثيل وقد أصاب التصوف الإسلامي ما أصاب غيره من الخلل في الفروع والأصول غير أن الإنكار على هذا الخلل انتهى إلى مدرستين المدرسة الأولى اعتقدت بطلان التصوف جملة وتفصيلاً أصولاً وفروعاً واعتبرته أمراً لاعلاقة للإسلام به ولا علاقة له بالإسلام وإنما هو رافد ضلالات أهواء مختلقة ومقالات أديان منتسخة وفلسفات أباطيل وهرطقة فدعت هذه المدرسة إلى القضاء على التصوف جملة وتفصيلاً واستئصال علومه من ثقافة المسلمين وهدم مذاهبه كيف كانت وأنى كانت والمدرسة الأخرى آمنت بالتصوف وأن أصوله حق وأن رواده مشيخة صدق وأنه منهاج ينتهي بسالكه إلى برد اليقين واللحوق بدرجة السابقين ولكن أهل هذه المدرسة يصرحون أيضاً بأنه قد انتسب إليهم من ليس منهم ولا هو على حالهم وأقوالهم وأفعالهم بل إنهم يصرحون أن في بعض أقوال وأفعال وأحوال المتصوفة ما تقضي عليه نصوص الشرع بالرد وكذلك تقضي عليه أصول التصوف ثم إن هذه المدرسة لها منهاج واضح في كيفية التعامل مع هذه الأوضاع فهي إذن مدرسة صوفية تسعى إلى إصلاح الصوفية وتصحيحها .

إن أصل اختلاف المدرستين يرجع إلى اختلافهم في مصدر التصوف وأصله وبداية ظهوره فتنسبه مدرسة الإنكار التام إلى مصادر غير إسلامية ويختلفون في أي المصادر هي : يونانية و فارسية وهندوكية وبوذية ومسيحية إلى غير ذلك بينما تحتج المدرسة الأخرى بأن إماماً سلفياً غير صوفي مثل الحافظ الذهبي ينسبه إلى الصحابة والتابعين فتجده يقول في كتابه (سير أعلام النبلاء) (٥١٠/١٨) في سياق انتقاده على الحافظ أبي إسماعيل الهروي تأليفه (منازل السائرين) يقول :

[**يا ليته لا صنف ذلك فما أحلى تصوف الصحابة والتابعين**]

وقال أيضاً في كتابه (تذكرة الحفاظ) (١١٨٥/٣) :

[**هذا الكتاب لون آخر غير الأنموذج الذي أصفق عليه صوفية التابعين**]

ويؤكد ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته (٣٩٠/١) فيقول :

[إن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه جمهور من لذة ومال وجاه والانفراد في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة] .

وأما الشيخ ابن تيمية فيقول كما في (مجموع الفتاوى) (٥/١١) :

[وأما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك] .

وبديهي أن عدم الشهرة لا تعني عدم الوجود أما بداية ظهور التصوف في شكل تجمع فإن الشيخ ابن تيمية يذكر أن ذلك كان بالبصرة على يد أصحاب عبد الواحد بن زيد وهم الذين أسسوا أول دويرة للصوفية قال في (مجموع الفتاوى) (٦/١١) :

[**أول ما ظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من**

المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية] .

ويقول الحافظ الذهبي (ميزان الاعتدال) (٦٧٣/٢) عن عبد الواحد بن زيد :

[شيخ الصوفية وواعظهم لحق الحسن وغيره] .

وعبد الواحد بن زيد وأن كان مستضعفاً في الرواية إلا أن العلماء لا يشكون في ولايته وصلاحه ولا يلتفتون إلى قول الجوزجاني فأنه متعنت كما هو مشهور عنه أضف إلى ذلك أن عبد الواحد بن زيد هو من جملة أولياء الله الصالحين المذكورين في كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) للشيخ ابن تيمية انظر (مجموع الفتاوى) (٢٨٢/١١) .

أما أول من تكلم في أصول وقواعد التصوف على رؤوس الناس فهو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي الذي كان الإمام أحمد بن حنبل يسأله عن رأي الصوفية في بعض المسائل كما نص على ذلك الحافظ الخطيب البغدادي في تاريخه (٣٩٠/١) ويؤكد هذه المعلومة أيضاً الحافظ السيوطي في كتابه (الوسائل في معرفة الأوائل) (صـ١٢٦) .

في هذهع الورقة البحثية سوف نعتمد مذهب القائلين بإسلامية مصادر الصوفية للأسباب الآتية :

<u>أولاً</u> : إن مشيخة الصوفية إلى زمان الإمام القشيري معروفون مشهورون ليس فيهم من عرفت عنه مداخلة أي مصادر هندوكية أو يونانية أو بوذية أو غير ذلك انظر أسماءهم فيما يلي :

الاسم	تاريخ الوفاة
١. أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم	١٦١
٢. أبو سليمان داود بن نصير الطائي	١٦٥
٣. أبو علي الفضيل بن عياض	١٨٧
٤. أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي	١٨٨
٥. أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي	١٩٤

٨٣. أبو بكر الحسين بن علي بن يزدا نيار

ثانياً : إن شهادات علماء الشريعة وأئمة السنة في زمان هذه المشيخة كالإمام أحمد بن حنبل وفي غير زمانها كابن تيمية والذهبي تؤكد اعتماد المصدر الإسلامي للتصوف وإلغاء مخالفه بل إن الشيخ ابن تيمية يرى أن المعنى المستفاد من لفظة صوفي هو المعنى المقصود من لفظة صديق قال في (مجموع الفتاوى) (١٦/١١) :

[وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون] .

ولكن الشيخ ابن تيمية يقرر أيضاً أن هذا لا يجعل الصديقية حكراً على التوجه الصوفي أو نتيجة طبيعية للنشاط الصوفي فيقول كما في (مجموع الفتاوى) (١٦/١١) :

[هو . أي الصوفي . في الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال : صديقو العلماء وصديقو الأمراء فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين أنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضاً كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم والصديق من العصر الأول أكمل منه والصديقون درجات وأنواع ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه] .

أما الحافظ الذهبي . وهو من هو . فإنه يذكر جماعة من شيوخ الصوفية ويدرجهم في قائمة من سماهم " معدلي حملة العلم النبوي " وانظر تراجمهم في ديوانه الجامع (تذكرة الحفاظ) ويبدئ فيهم ويعيد في موسوعته الضخمة (سير أعلام النبلاء) مع يقيننا أنه يعلم أنه قد انتسب إليهم من ليس هو . عند التحقيق . منهم . وانظر تراجم بعض " معدلي حملة العلم النبوي " عنده وهم :

الحافظ أبو سعيد بن الأعرابي (٨٥٢/٣)

الحافظ محمد بن داود بن سليمان (٩٠١/٣)

الحافظ أبو الطيب محمد بن جعفر بن دران المشهور بغندر (٩٦١/٣)

الحافظ أبو الفضل نصر بن محمد بن يعقوب الطوسي (١٠١٦/٣)

الحافظ المالبني الهروي (١٠٧٠/٣)

الحافظ أبو محمد عطية بن سعيد الأندلسي (١٠٨٨/٣)

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني (١٠٩٢/٣)

الحافظ أبو ذر الهروي (١١٠٣/٣)

الحافظ أبو صالح المؤذن النيسابوري (١١٦٢/٣)

الحافظ أبو إسماعيل الهروي (١١٨٣/٣)

الحافظ أبو يعقوب الشيرازي (١٣٥٦/٤)

الحافظ أبو عبد الله محمد بن الحسين اليونيني (١٤٣٩/٤)

الحافظ أبو علي الحسين بن محمد البكري (١٤٤٤/٤)

الحافظ أبو زكريا النووي (١٤٧٠/٤)

الحافظ أبو الفتح محمد بن أحمد الأبيوردي (١٤٧٥/٤)

الحافظ أبو الحسن علي بن مسعود الموصلي (١٥٠٠/٤)

الحافظ صفي الدين الأرموي (١٥٠٠/٤)

الحافظ ضياء الدين بن حمويه الخراساني (١٥٠٥/٤)

<u>ثالثاً</u> : إن نظرة عابرة في النشاط الدعوي للإسلام تظهر لنا أن أزيد من ٧٠%من شعوب العالم الإسلامي قد كان ابتدأ دخولها في الإسلام على يد الدعاة من الصوفية وارجع إلى تاريخ الإسلام في بلاد جاوة وماليزيا وجميع جنوب شرق آسيا وكذلك في الهند وباكستان وبنغلاديش وكذلك التركستان والأوزبك والقوقند والشيشان والأوكران ومناطق الفولجا وكذلك غرب إفريقيا ووسطها بل كثير من شرق القارة السوداء تجد كل ذلك كان نتاجاً لنشاط دؤوب لمشايخ الصوفية وهو أمر لا يخفى على أهل العلم والتتبع .

رابعاً : إن علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول وفقه وغيره كاد ألا يكون لها سند متصل بالمتخصصين فيها من الأكابر إلا من طريق المشيخة الصوفية تشهد بذلك الفهارس والأثبات والبرامج والمشيخات على اختلاف أنواعها وانظر إن شئت مثلاً :

١. مشيخة الحافظ بن النجار ٦٤٨ هـ

٢. مشيخة الحافظ بن البخاري ٦٩٠ هـ

٣. برنامج الحافظ التجيبي ٧٣٠ هـ

٤. معاجم الحافظ الذهبي ٧٤٨ هـ

٥. معجم الحافظ بن حجر ٨٥٢ هـ

٦. معجم الحافظ بن فهد ٨٨٥ هـ

٧. معجم الحافظ السيوطي ٩١١ هـ

٨. تعلل الحافظ بن غازي ٩١٩ هـ

٩. فهرس الحافظ المنجور ٩٩٥ هـ

١٠. صلة الحافظ الروداني ١٠٩٤ هـ

١١. أمم الحافظ الكوراني ١١٠١ هـ

١٢. كفاية الحافظ العجيمي ١١١٣ هـ

١٣. إمداد الحافظ بن سالم البصري ١١٣٤ هـ

١٤. ثبت الحافظ الشبراوي ١١٧١ هـ

١٥. إرشاد الحافظ الدهلوي ١١٧٦ هـ

١٦. قطف الحافظ الفلاني ١٢١٨ هـ

١٧. عقود الحافظ العقاد ١٢٢٢ هـ

١٨. إتحاف المحدث الشوكاني ١٢٥٠ هـ

١٩. حصر المحدث عابد السندي ١٢٥٧ هـ

٢٠. شموس المحدث بن السنوسي ١٢٧٦ هـ

٢١. يانع المحدث عبد الغني الدهلوي ١٢٩٦ هـ

٢٢. مرويات المحدث القاووقجي ١٣٠٥ هـ

٢٣. وجازة المحدث العظيم آبادي ١٣٢٩ هـ

٢٤. كفاية المحدث الترمسي ١٣٣٨ هـ

٢٥. إسعاد المحدث اللكنوي ١٣٦٤ هـ

٢٦. مطمح المحدث حمدان ١٣٦٨ هـ

٢٧. معجم المحدث الغماري ١٣٨٠ هـ

٢٨. فهرس المحدث الكتاني ١٣٨٢ هـ

٢٩. أثبات المحدث الفاداني ١٤١٠ هـ

٣٠. أثبات المحدث الأركاني ١٤١٨ هـ

ومع ذلك كله فإن هذه الورقة براجماتية لا تحاول أن تزج نفسها في الجدليات التقليدية حول التصوف وحقيقته ومصادرها وإنما قصدنا مما ذكرناه سابقاً توضيح موقف لا إنشاء خصومة فإن القصد من هذه الورقة هو الكشف عن موقف الصوفية من الجهاد من سبيل الله وذلك لسببين :

<u>أولاً</u> : إن كثيراً من الناس لا يستطيع التعاطي مع القول بتصوف المجاهدين في سبيل الله اعتقاداً منهم . وهم مخطئون في هذا الاعتقاد . أن الصوفية يهربون من جهاد القتال ويستصغرونه ويسمونه الجهاد الأصغر ويستبدلون به الذكر والخلوة والانطوائية ويسمون هذا الجهاد الأكبر ويشيعون في ذلك حديثاً ينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ... جهاد النفس وهذا الحديث عند المنتقدين يراه بعضهم ضعيفاً وبعضهم يراه موضوعاً وقد غفل هؤلاء وهؤلاء عن أن الحافظ الخطيب البغدادي قد روى في تاريخه بإسناد صحيح : (" قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " قالوا : " ما الجهاد الأكبر يا رسول الله " قال " مجاهدة العبد هواه ") كما غفلوا أيضاً عن الحديث الآخر وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله) .

قال الإمام الشوكاني في كتابه (تحفة الذاكرين) :

[الحديث أخرجه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك .... وأخرجه أيضاً مالك في الموطأ وابن ماجة والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان وابن شاهين في الترغيب في الذكر كلهم من حديث أبي الدرداء إلا أن مالكاً في الموطأ وقفه عليه وقد صححه الحاكم في المستدرك وغيره وأخرجه أحمد أيضاً من حديث معاذ قال المنذري بإسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً وقال في حديث أبي الدرداء إن أحمد أخرجه بإسناد حسن وقال الهيثمي في حديث أبي الدرداء إسناده حسن وقال في حديث معاذ رجاله رجال الصحيح إلا أن زياد مولى ابن عباس لم يدرك معاذاً] .

لذلك كله احتجنا في التعامل مع المتشككين إلى التركيز على تصوف زعماء الجهاد في سبيل الله .

ثانياً : إن الدراسات والبحوث المعاصرة حول هذه الشخصيات الصوفية من قيادات الجهاد في سبيل الله حجبت أو أعرضت أو خففت التركيز على الجانب الصوفي في الشخصية المعنية إما اعتماداً على عدم تأثيره وإما اعتقاداً أن التركيز عليه يشوه الشخصية المعنية . فهم إذاً ينطلقون من مسلمات عندهم والحق والتحقيق لا يوافقان هذه الطائفة من الباحثين والدارسين على ما اعتقدوه او اعتمدوه غير أننا إذا اعتمدنا المصدر الإسلامي للتصوف في نشأته وبدايته وأول أمره فهذا لا يعني بالضرورة أننا نعتقد أن المنبع الصافي ظل صافياً بل المؤكد أنه دخله عكر وتغيير فقد بدأت تظهر موجات متتابعة من الانحراف عن المذهب الصوفي وذلك بالاخلال بأصوله وقواعده والخروج عن تقريرات أئمته وكبار المرشدين فيه .

لقد كان شيوخ الصوفية هم أول من انتبه إلى أن التصوف الإسلامي قد شابته الشواءب وخالف المنتسبون إليه أصوله وقواعده فنشأت من أجل ذلك بين قيادات الصوفية حركات تصحيحية اعتنت بالتنبيه على هذه المخالفات وآثارها والتحذير منها ومن نتائجها وقد جعل الإمام الطوسي الغلط الذي وقع فيه المنتسبون إلى الصوفية على طبقات ثلاث قال صفحة (٥١٩) في كتابه (اللمع):

[إني نظرت إلى الفرق الذين غلطوا فوجدتهم على ثلاث طبقات فطبقة منهم غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة وضعف دعائهم في الصدق

والإخلاص وقلة معرفتهم بذلك كما قال بعض المشايخ حيث يقول إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول وطبقة ثانية منهم غلطوا في الفروع وهي الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات ويوقفهم على المنهج الذي يؤديهم إلى مطلوبهم .... فهم متحيرون ومتفرقون بين منهزم ومفتون ومتجبر ومحزون ومغتر بالظنون ومخترف بالجنون ومتلبس بالمجون ومكمد بالشجون ومدع ومفتون ومتمن للمنون فسبحان من قسم لهم بذلك وهو العالم بدائهم ودوائهم وسقمهم وشفائهم والطبقة الثالثة كان غلطهم فيما غلطوا فيه زلة وهفوة لا علة وجفوة فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الخلاق ومعالي الأمور فسدوا الخلل ولموا الشعث وتركوا العناد وأذعنوا للحق وأقروا بالعجز فعادوا إلى الأحوال المرضية والأفعال السنية والدرجات الرفيعة فلم تنقص مراتبهم هفوتهم ولم تظلم الوقت عليهم جفوتهم ولم تمتزج بالكدورة صفوتهم وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث على أحوال شتى من التفاوت والإرادات والمقاصد والنيات] .

قال الدكتور طه عبد الباقي سرور في كتابه : (شهيد التصوف الإسلامي) صفحة (٢٧) :

[لقد وجد الروح الصوفي مع الإسلام منذ يومه الأول وليس معنى هذا أن الأذواق والمواجيد القلبية والروحية والمناهج الصوفية سلوكاً ومعرفةً كانت واضحة جلية في أيام الإسلام الأولى وفي حياة أئمة الصحابة رضوان الله عليهم ففي هذا الزعم إسراف ومجانبة للحقائق .

ولكننا لو تأملنا في آيات القرآن المحكمة وفي حياة الرسول الطاهرة وسير صحابته المشرقة نجد البذور الأولى للسلوك الصوفي وللمعرفة الروحية مبينة متلألئة .

وليس التصوف بدعاً في هذا فكل منهج من مناهج المعرفة في الإسلام انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن وجوهر رسالته وبدأ كما بدأ التصوف مع الإسلام ثم نما وتطور ومشى مع خطو الحياة وسنة الله .

فإننا مثلاً نستطيع أن نقول مع الفقهاء أن الفقه نشأ مع الإسلام وليس معنى هذا القول أن التفريعات الفقهية والاستنباطات والمصطلحات الفنية كانت في صدر الإسلام وفي الكتاب والسنة ؟ وإنما كانت هنالك البذور الأولى والمادة الأولى التي نمت وتطورت ومشت مع الحياة .

كان التصوف موجوداً في صدر الإسلام بروحه وهديه وآدابه وخلقه وترفعه وزهده وعباداته وطاعاته وذكره ومناجاته كان موجوداً بجوهره وقائماً بكلياته لا بجزئياته .

كان التصوف في صدر الإسلام هو هذا الروح الديني المهيمن المسيطر على حياة المسلمين كافة الموجه لحركاتهم وسكناتهم الصاعد بأعمالهم ونواياهم إلى خالقهم ومولاهم .

كان هذه الرقابة الحية اليقظة التي أقامها كل مسلم في أعماقه ليراقب ما توسوس به نفسه وما يصطرع في قلبه وما يتواثب في نفس وما يخفي صدره وما تطرف به عينه .

كان هذا الترفع الشامخ عن شهوات الدنيا وزخرفها والإعراض عن بريقها وفتنتها والزهد في ترفها ومظاهرها والتسامي بكل ما فيها إلى وجه الله حتى يظفر بحبه ورضاه وقربه وهداه لأن الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة ولأن الآخرة خير وأبقى .

ثم مشت الحياة بالمسلمين وفتحت عليهم الدنيا وابتعدت مسامعهم عن نغمات الوحي وتفرقت قلوبهم عن الميثاق والعهد وانحلت العزائم وفترت الهمم وتسارع الناس إلى المال والجاه ولهو الحياة ونشأت الفتن واختصموا على الملك وتصارعوا وتباغضوا وتشعبت بهم السبل .

ونشأت تبعاً لذلك حركات مضادة ورسالات مجاهدة صمدت في وجه العاصفة ... ويحدثنا تاريخ النصف الثاني من القرن الأول للهجرة عن وعاظ ومرشدين وقفوا على أسوار القرآن ومعالم السنة ينذرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم تميزهم شجاعة نفسية عالية أعانتهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذي بدأت طلائعه في أفق الحياة الإسلامية .

وبجوارهم رأينا طائفة من الزهاد الذين وقفوا في وجه فتنة الترف والإسراف وأخذوا يديرون لحونهم وأحاديثهم حول فضائل النفس وآداب الحس وتزكية الجوارح والزهد في الدنيا وهوان أمرها وزوال نعيمها وضلال شهواتها.

ثم رأينا العباد المتبتلين الذين انقطعوا إلى طاعة الله وعبادته وذكره وأحالوا الكون إلى محاريب للصلاة والمناجاة ومنابر للتحدث عن نعم الله وعن عظمته وجلاله والأنوار التي يفيضها للساجدين المتطهرين .

ومن هؤلاء تكون الرعيل الأول من الصفوة الربانيين الذي عرفوا في التاريخ باسم الصوفية أو كما يقول ابن خلدون (**اختص المقبلون بأنفسهم على الله باسم الصوفية**) .

ثم بدأت تتكون لهذه الطائفة ثقافة إيمانية لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية . ثقافة تدور حول ذكر الله وإلهاماته ومجاهدة النفس وما ينبثق من هذه المجاهدة من آداب السلوك ومقامات السير ويتوج كل هذه الصلة بالله سبحانه وما يترقرق حول هذه الصلة من أذواق ولحون ومواجيد وأشواق ثم ثمرة هذا كله وهو المعرفة الباطنية وما تفيض هذه المعرفة من علوم وأنوار .

ومن ثم بدأت الحياة الروحية تنفصل عن الحياة العامة وتستقبل بمنهاجها ومعارفها وابتدأ الصوفية يصطنعون كلما تحدد أذواقهم وتعبر عن شعورهم وأخذ أفق هذه الكلمات يتسع لمعان متعددة وكانت كلمة تضاف إلى التصوف تفتح أفقاً جديداً وتكون منبعاً متدفقاً وتتناولها ألسنة الصوفية فتفتقها وتبتدع لها صوراً وألواناً وأذواقاً .

ثم أخذوا يكونون لهم فلسفة في الأخلاق وفي السلوك وفي العبادة فأخذوا يجردون الأسباب منتن قوتها ويرجعون كل شيء إلى الله سبحانه وتعالى فأكسبهم ذلك عزة خلقية وسعادة روحية قوامها الرضاء بقضاء الله وقدره واليقين بألا سلطان لقوة من قوى الأرض على مصائرهم وحياتهم كما يقول إبراهيم بن أدهم (نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف) .

كما أفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه شجاعة نفسية وقوة إيمانية لا تسامقها قوة ولا شجاعة يقول إسحاق بن إبراهيم السرخسي : (سمعت ذا النون المصري وفي يده الغل وفي رجليه القيد وهو يساق إلى المطبق والناس في بغداد

يبكون حوله وهو يقول (هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه وكل فعله عذب حسن طيب)] انتهى ما نقلناه من كتاب (شهيد التصوف الإسلامي) .

استناداً إلى كل هذا يمكننا أن نعلق فنقول إن المسلم إذا اكتفى بالتعلم دون التطبيق العملي أصيب بالانفصالية بين شخصيته وبين سلوكه من ناحية وبين الإسلام ومبادئه من ناحية أخرى وقد كانت هذه الانفصالية هي أمل المستعمرين لكي يجدوا الفراغ لملئه بما يشاؤون سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ضماناً لمستقبلهم على أرض الاحتلال وقد نجحوا في وقت من الأوقات في عزل الإسلام عن الحياة العملية العامة للجماعات المسلمة .

إن الثقافة الدينية التي نريدها وندعوا إليها الآن هي (**<u>الشريعة والحقيقة</u>**) التي تحمل المسلم على أن يكون علمه عملاً وعمله حالاً وذوقاً ويقيناً وتجعل معرفته هي الإحاطة بحقيقة ما يدعو إليه الكتاب والسنة ويستجلي آيات الله بنور البصيرة كما تتطلب المعرفة في مقامها عند السادة الصوفية بناء المعاملات على اليقين العلمي القريب من العيني (**<u>كأنك تراه</u>**) المصحح للتوكل والتفويض والموجب لحسن الخلق مع الحق والخلق .

لقد تجنى قوم على التصوف وأسرفوا في تجنيهم فحينما تحدث الصوفية عن الزهد مثلاً ونادوا به وعملوا عليه قالوا عنهم (ضعفاء مهزومون في معترك الحياة) !!! فارجع البصر في قولهم هذا !!! وتذكر فتنة السياسة في الدولة الأموية وفتنة المال في الدولة العباسية يتجلى لك ضعف هذه العبارة ووهنها ومجافاتها للحقيقة .

وما لنا نذهب بعيداً ونحن في هذا العصر المجنون المفتون بالدنيا وملذاتها الذي اندفع الناس فيه نحو حضارة زائفة لا قلب لها ولا ضمير ولم تقدم لنا زاداً ولم تحاول رفع الآدمية عن قانون الوحوش ومع ذلك فهي ترفع صوتها بحقوق الإنسان !!! ولا تبالي بضياع الإنسان وضياع شخصيته !!! هذه الحضارة التي لا تسمع فيها إلا أصوات الآلات في المصانع ومراكز الإنتاج !!! ولا تتحدث إلا بلسان الربح والخسارة الماديين ولا تنظر إلا بعين المرابي !!! وجعلت للسلاح المدمر للإنسان سباقاً ولم تكتف بسباق التسلح حتى خلقت تجارة السوق الأسود للسلاح لا يسألون فيه من القاتل ولا من المقتول ولا على أي مبدأ يقاتل القاتل ويضحي المقتول !!! إن

الإنسان الذي يعيش اليوم في غمار حضارة القرن العشرين كان أولى به أن يرجع إلى حضارة الغابة من أن يعيش في ظلال الخوف والقلق والاكتئاب والإحباط والطغيان والدماء المسفوكة إن المدنية التي ترفرف على شعوب العالم اليوم في ظل النظام العالمي الجديد يجب عليها أن تنكس الأعلام خزياً وحياءً فضلاً من أن تنتسب إلى (المدنية) !!! .

إن بعض العقلاء في بعض حكومات هذا العصر بدؤوا ينادون بضرورة التقشف والزهد كمبدأ أساسي وهو نفس ما نادى به الصوفية في الماضي ولكن الفرق بين زهد الصوفية والزهد الذي يدعو إليه هؤلاء إن هؤلاء يدعون إلى الزهد والتقشف ضعفاً وعجزاً عن مسايرة النظام العالمي الجديد ولضيق الموارد التي تسمح لهم بالانغماس في ملذات الحياة !!! أما أنهم يدعون إلى الزهد والتقشف ترفعاً عن الدنيا وإعراضاً عن مفاتنها وطمعاً في ثواب الله وخوفاً من عقابه ... فلا ... هذا هو زهد السادة الصوفية فليسوا إذاً (ضعفاء مهزومون) بل هم (أبطال مجاهدون) رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه .

شيوخ الطرق الصوفية يدقون طبول الحرب

إن أهل المعرفة بالله السادة الصوفية يمثلون قلب الإسلام فهم الذين حملوا العلم حقاً في باطنهم وظاهرهم فهم الصورة الكاملة للمسلم الكامل المؤمن الطاهر في ظاهره وباطنه في سره وعلانيته ويمكنك أن تكون فقيهاً وإن لم تعمل بما تعلم ولكنك لن تكون زاهداً ولا عارفاً إلا إذا زهدت بالفعل وشهدت فعرفت فعلمهم عمل وعملهم حال وحالهم خطوة إلى الطمأنينة في مقام القرب الأدنى (**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**) .

وما حرص أعداء الإسلام على شيء حرصهم على محاربة هؤلاء الذين تعلقت قلوب المسلمين بمحبتهم ولذلك نسمع ونرى الغارة الشعواء تلو الغارة تشويهاً لصورتهم وتشهيراً بهم مع أنه لن يستطيع عالم تخطيهم إلا إذا حاد عن الإنصاف وقد دارت الفتوى والعلوم الشرعية في غالب عصور الإسلام على شيخ من السادة الصوفية أو محب للسادة الصوفية والتاريخ خير شاهد ومن نافلة القول بيان أنه قد اندس فيهم من ليس منهم ولكن هل يجني عليهم من ادعى أنه منهم وليس منهم وماذا يضر هؤلاء السادة الصوفية أهل الطهر والصفاء المقتدين بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ماذا يضرهم أن يندس فيهم من يقتدي بالمنافقين في زمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد أخطأ المهاجمون في فهم التصوف لأنهم أخطأوا في فهم روح الإسلام ورسالته **فليس التصوف خمولاً ولا انهزاماً كما ادعوا وليس التصوف تواكلاً وهواناً ورضاً بالذل ولو كان هذا ما كان صاحبه مسلماً كاملاً ولا عابداً عارفاً بالله .**

إن التصوف قوة وبأس ونضال إنه تصعيد بالحياة إلى أعلى إنه معرفة وإيمان وإيقان أنه قوة روحية تكمن وراء كل حركة وخاطرة إن تعلق بالله وحده يرفع من معنوية الإنسان في الحياة فلا يأبه بطغيان طاغية ولا جبروت سلطان ولا يزن أعماله إلا بميزان دقيق أساسه مراقبة الله وتحكيم الحق الصرف في كل عمل وفي كل حركة وفي كل خاطرة وفي كل التفاتة .

والحركة الفكرية والتجديدية في الإسلام إنما كانت أثراً لأئمة التصوف الإسلامي ولجهودهم الضخمة في نصرة الإسلام والعمل على النهوض بالمسلمين بل

إن الإسلام لم ينتشر في أواسط إفريقيا وفي الممالك النائية في آسيا وفي جزر المحيط الهندي وفي إندونيسيا وفي ماليزيا وأيضاً في أوروبا في بلغاريا وفي رومانيا وفي بلاد يوغسلافيا وفي البوسنة والهرسك وكوسوفو (بلاد الصغالبة) لم يكن كل ذلك إلا على أيدي الدعاة من الصوفية المجاهدين .

وكيف ننسى هذا التراث الروحي الكبير أو ننتقص من قيمته وهو جزء مهم من تاريخنا الوطني والسياسي **فهؤلاء الصوفيون الأعلام هم الذين قاوموا طغيان الحكام وانتصروا للشعب في محنته وكافحوا الاستعمار الصليبي والإيطالي والفرنسي والإنجليزي كما كافحوا من قبل ظلم المماليك وطغيانهم .** (انظر كتاب التاريخ للإمام الجبرتي) لقد كان الصوفية هم من وراء تأهيل المصريين لزعامة العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة وبتأييدهم وحشود مريديهم ومحبيهم انتصر المسلمون على الصليبيين في حطين وفي دمياط وفي المنصورة وانتصروا على التتار في عين جالوت وانظر تاريخ الشيخ أحمد الدرديري شيخ الطريقة الخلوتية وانظر تاريخ الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الطريقة الشاذلية وانظر تاريخ الشيخ السادات والشيخ عمر مكرم والشيخ أحمد بن السنباطي وكل هؤلاء صوفيون .

وفي تاريخنا المعاصر كان هنالك الشيخ النوراني محمد بن على السنوسي الصوفي الكبير شيخ الطريقة السنوسية في ليبيا التي كافحت الجهل والفوضى التي جاهدت الاستعمار الإيطالي في ليبيا جهاداً شديداً إن الشيخ الشريف أحمد السنوسي حفيد شيخ الطريقة قد قضى حياته في كفاح الاستعمار الإيطالي وأزعج الدويتش موسيليني زعيم الحزب الفاشستي ورئيس الدولة الإيطالية وجهاد الشريف أحمد السنوسي يعتبر من أيام البطولات الخالدة في تاريخنا المعاصر ويكفي الطريقة السنوسية المجاهدة فخراً أن الشيخ عمر المختار هو أحد رجالات هذه الطريقة ومن كبار مقدميها ومن أخلص التلاميذ لقائد الجهاد الأعلى الشيخ الشريف أحمد ابن السنوسي (انظر كتاب حاضر العالم الإسلامي) تأليف لوثورب وترجمة شكيب أرسلان .

وكان من قبل الشيخ شمس الدين الدمياطي يرابط في ثغر دمياط في مواجهة العدو وكان الشيخ محمد خفاجي الصوفي الجليل يقيم هو وأسرته في دمياط في

جهاد العدو كما هو مدون في تاريخه ولا ننسى الشيخ الصوفي المحدث العلامة ضياء الدين الكمشخانوي من كبار رجال الطريقة النقشبندية الذين حاربوا الروس في غزوهم الظالم لمنطقة القوقاز سنة ١٢٨٠هـ ولا ننسى الشيخ أحمد شاكر بن خليل علامة الروم الذي قاد كتيبة من المتطوعين من تلاميذ الزوايا الصوفية حتى فتحوا مدينة (علكسانيج) في حرب الصرب وألقى يوم الفتح خطبة الجمعة باسم الخليفة في أكبر كنيسة هنالك .

ولا ننسى شيخ الإسلام الصوفي محمد سعد الدين (المتوفى عام ١٠٠٨) الذي كان مع السلطان محمد الثالث في حرب (هنغاريا) وحضر المعركة المشهورة باسم (أكري) . ولا ننسى جهاد السلطان الصوفي تاج الدين إسماعيل في (دار مساليت) الذي اعتدى عليه الفرنسيون بعد أن استولوا على (أبشه) في شهر ربيع الثاني ١٣٢٧هـ فحاربهم تاج الدين في (كرندن) وفي وادي (كجه) شرق الجنينة وهزم جيش الفرنسيين وقتل قائدهم الكابتن (فينجشون) وغنموا منهم أسلحة وذخائر ثم اعتدى عليه الفرنسيون مرة ثانية بقيادة الكولونيل (مول) فحاربهم تاج الدين في (دورتي) وانهزم جيش الفرنسيين وقتل الكولونيل مول ثم اشتغل الناس بأخذ الغنائم فانقلب النصر هزيمة وقتل السلطان تاج الدين فنال الشهادة في سبيل الله .

ويخبرنا الشيخ المؤرخ العلامة الجبرتي في تاريخه المشهور ماذا فعل الصوفية حينما هاجم الفرنسيون مصر بقيادة الجنرال (نابليون بونابرت) قال الجبرتي :

[خرجت الفقراء (= تلاميذ الصوفية) وأرباب الأشاير (= مقدمو الزوايا) بالطبول الزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة (البيرق النبوي) فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك وأما مصر فإنها بقيت خالية الطرق ولا تجد بها أحداً سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة .]

ويمضي الجبرتي فيعطينا صورة معاصرة في كل تفاصيلها فيقول :

[وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع رطل البارود بتسعين نصفاً والرصاص بتسعين وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر وأقام غيرهم مع الرعايا البعض بالبيوت والبعض بالزوايا والبعض في الخيام ومحص الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق] .

ولكن آلية الحرب الفرنسية المتطورة وكفاءة التدريب العالية للجندي الفرنسي والوفرة من السلاح والذخيرة والخطة المدروسة منذ سنوات والخيانة الداخلية كل ذلك كان من جملة العوامل التي جعلت فرنسا تكسب الحرب وتحتل مصر ولكن شيوخ الصوفية الذين هم زعماء الأمة واصلوا الجهاد وأعلنوا به مع الأذان في الصلوات الخمس لقد حاول (الجنرال نابليون بونابرت) أن يشتري تعاونهم عن طريق تعظيمهم وتشريفهم وتكريمهم فرفضوا جميع ذلك في إباء المسلم الذي لا يرضى إلا بربه .

الكاتب السياسي الأستاذ محمد جلال كشك يشرح لنا ذلك في كتابه المشهور (ودخلت الخيل الأزهر) :

[فرفضت سلطات الاحتلال إدارة جديدة من المصريين بمدينة الإسكندرية وكان من أبرزها (المسيري) الذي عينه (كليبر) رئيساً للديوان بعد تحطيم الأسطول في موقعة (أبي قير) وهو منافق من الطراز الرفيع جداً كان نموذجاً للقادة الذين يبحث عنهم الفرنسيون بل وكل مستعمر كان رائعاً في تمثيله لروح العصر ومسايرة الزمن ولعله في الإسكندرية وحدها وعلى مائدة (المسيري) قدم الأرز في ثلاثة ألوان رمزاً لراية الثورة الفرنسية ولا شك إن (حلة) الأرز المثلثة الألوان وأطباقه التي كان يجري توزيعها والمساواة والإخاء كان كل ما فهمه المتعاونون عن الثورة الفرنسية ومبادئها وأيضاً كما يود الفرنسيون أن يفهموه لهؤلاء المتعاونين ولكن قادة الشعب الحقيقيين كانت لهم وجهة نظر أخرى ... فعندما جمع نابليون المشايخ وأراد تكريمهم ... (قال الجبرتي) [فلما استقروا عنده نهض (

بونابرته) من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاث ألوان كل طيلسانة ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي فرمى به على الأرض واستعفي وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه (حياه الله ورضي عنه) فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم أحباباً لساري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فإذا تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم **فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين .**] .

علق الأستاذ / محمد جلال كشك قائلاً :

[استاء إمام المدرسة الاستعمارية (صبحي وحيد مؤلف كتاب أصول المسألة المصرية) استاء من موقف الشيوخ هذا وعلق عليه بأن أحرار أوروبا كانوا يتخاطفون هذه الشارة وقتها ... نفس الشارة التي ألقاها المشايخ على الأرض] .

إن ما فعله الشيخ الشرقاوي شيخ الطريقة الشاذلية هو امتداد طبيعي للنشاط الجهادي للسادة الصوفية ولننظر ما فعله صديقه الشيخ المهدي ذلك الشيخ الصوفي في معركة (سنهور) في ٣مارس ١٧٩٩م .

قال الأستاذ كشك في كتابه (ودخلت الخيل الأزهر) ناقلاً عن الرافعي في كتابه (التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية) :

[وصل المدد إلى الرحمانية وانضم إلى الجنود الذين بها وسارت القوات الفرنسية مجتمعة فالتقت برجال المهدي (وهو اسم وليس لقباً) يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ودارت معركة من أشد المعارك هولاً قال (ريبو) في وصفها إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف من الفرسان وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري أظهر فيها أتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له وبذل الكولونيل (لفيفر) أقصى ما أنتجه العلم والفن في القتال فجعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التي ابتكرها نابليون وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة فكان يحصد صفوفهم حصداً بنيران البنادق والمدافع وكان أتباع المهدي قد غنموا في دمنهور مدفعاً فرنسياً فاستخدموه في المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران وأخذوا يطلقون

منه النار على الفرنسيين واستمر القتال حتى جن الليل وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ففكر (لفيفر) في الانسحاب من الميدان والاتجاه إلى الرحمانية ولكن جموع المهدي لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامهم فأمر رجاله أن يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التي طوقتهم وركب المدافع على رؤوس المربع لاقتحام هذه الجموع وانسحبوا من ميدان القتال بعد أن فدحتهم الخسائر] .

إن موقف الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي وهما من أعلام شيوخ الصوفية يذكرنا بموقف ذلك الشيخ الصوفي سليمان المنصوري يقول الأستاذ محمد جلال كشك وهو ينقل عن الجبرتي ويعلق :

[وفي سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٥م) أصدر السلطان مراسيم وأوامر منها : (إبطال مرتبات أولاد وعيال ومنها إبطال التوجيهات وأن المال يقبض إلى الديوان ويصرف من الديوان وأن الدفاتر تبقى بالديوان ولا تنزل بها الأفندية إلى بيوتهم فلما قرئ ذلك قال القاضي (التركي) أمر السلطان لا يخالف ويجب طاعته) .

فماذا كان موقف الشيوخ في مواجهة هذا التهديد ؟! (قال الشيخ سليمان المنصوري يا شيخ الإسلام هذه المرتبات فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشترى ورتبوه على الخيرات ومساجد وأسبلة ولا يجوز إبطال ذلك وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك وإن أمر ولي الأمر بإبطاله لا يسلم له ويخالف أمره لأن ذلك مخالف للشرع ولا يسلم للإمام في فعل ما يخالف الشرع ولا نائبه أيضاً ... فسكت القاضي فقال الباشا هذا يحتاج إلى المراجعة) .

هذه السطور الأخيرة من المرافعة الدستورية للشيخ المنصوري أليست كافية وحدها لكشف زيف كل ما يكتب عن الدور التحضيري الذي لعبته الحملة الفرنسية أو الاستعمار الغربي أو أوروبا في المفاهيم السياسية بالعالم الإسلامي ؟!

هل هنالك حكم بعد دستورية مرسوم سلطاني أوضح وأجرأ وأكثر دقة من هذا الحكم الذي أصدره الشيخ المنصوري فأسكت القاضي وألزم الباشا أن يقول أن الأمر يحتاج لمراجعة .

هذا المبدأ الخطير الذي يعلنه الشيخ (المنصوري) عن أي مرسوم سلطاني يخالف الشريعة أي يخالف الدستور ... الشرع ...يعلنه الشيخ الأزهري في سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٥م) أي قبل سقوط الباستيل بأكثر من نصف قرن قبل أن يفكر أي عقل غربي في القارة الأوربية بجواز معارضة الملوك فضلاً عن أن يجرؤ على ذلك في مواجهة السلطة ويمثل هذا الوضوح والتحدي .

إن آخر ما يمكن أن تعلمه أوروبا للشرق الإسلامي هو فكرة بشرية الحاكم ومن ثم افتراض الخطأ أو الصواب في أحكامه الأمر الذي ينبني عليه حق الاعتراض والنقد وبطلان الأحكام الخاطئة .

لقد ظل الصوفية منذ كانوا أعداء للظلم والظالمين و كان شيوخهم نماذج يقتدى بها ومن أشهرهم الشيخ عثمان بن فودي ففي عام ١٨٠١م قام الشيخ عثمان بن فودي وهو من كبار شيوخ الطريقة القادرية وجمع جيشاً من (فوتا) و (ليتاكو) و (ماسينا) و (سنكوي) وأعلن الجهاد ودعا إلى رفع الظلم عن أهالي (جوبر) وعلى (الحوصة) واستولت على (نساوة) عاصمة (جوبر) ثم على (سكتو) و (كتسينا) و (زندر) و (كنو) و (زاريا) وغيرها من المدن وأقام بين (نهر النيجر) و (بحيرة تشاد) دولة جعلت عاصمتها عند (ورنو) الغربية من (سكتو) وأخذ في توزيع رقعتها حتى وصلت حدودها إلى (نويا) في الجنوب الغربي وإلى (إدمار) في الجنوب الشرقي توفي الشيخ بن فودي عام ١٨١٥م إثر نوبة من الوجد غشيته .

إن الدولة التي أنشأها الشيخ عثمان بن فودي . شيخ الطريقة القادرية . قد استمرت إلى أربع وتسعين (١٨١٠م . ١٩٠٤م) وكان آخر سلاطينها السلطان (مياسو)١٨٧٧ . ١٩٠٤ الذي لم يستطع أن يقاوم الجيوش الإنجليزية بقيادة (فردرك لجارد) التي احتلت سكتو عام ١٩٠٤ وقضت على دولة الإسلام التي أقامها شيخ الطريقة القادرية في بلاد الحوصا .

وحين قامت الحركة المهدية في السودان لإزالة المنكر والظلم والطغيان وتحكيم القوانين الوضعية والمكوس وإذلال النفوس المؤمنة شارك الصوفية بمشيختهم ومريديهم في تلك الحركة **ويعض هؤلاء الشيوخ له رأيه الخاص في حقيقة مهدية الإمام محمد أحمد بن السيد عبد الله ولكن النظرة العامة التي تمثلت في هدف الثورة المهدية غلبت الرأي الخاص .**

فهذا هو الشيخ عبد الباسط الجمري من مشايخ الطريقة السمانية وقد ولاه المهدي على عربان الدويم وأمره بحصار الدويم فحاصرها حصاراً شديداً حتى أن عبد القادر باشا اضطر إلى إرسال (جيكلر) من الخرطوم فهاجم العربان في ديمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأخذ الشيخ عبد الباسط الجمري أسيراً وتم إرساله إلى عبد القادر باشا بالخرطوم الذي أعدمه شنقاً فنال الشهادة في سبيل الله .

وهناك الشريف أحمد طه شيخ الطريقة السمانية (شرق الأزرق) بين أبي حراز ورفاعة ورفع رايات الجهاد واجتمع حوله خلق كثير من البطاحين والشكرية والجعليين والدناقلة وغيرهم من سكان تلك الجهات فأرسل إليه (جكلر باشا) كتيبة بقيادة المك يوسف السنجك فأحاط بهم الشريف أحمد طه ورجاله وهزموهم هزيمة منكرة ثم هجم جكلر على رأس جيش ضخم وأرسلوا إلى الشريف ينصحونه بالاستسلام قال قولته المشهورة : [**دعوا النصيحة فإني قد أوقدت ناراً . يعني نار الجهاد . وأريد أن أتدفأ بها**] ووقعت المعركة التي كانت الغلبة فيها للرصاص حتى تراكمت القتلى بعضها فوق بعض وقتل الشريف أحمد طه شهيداً ثم حرقوا قرية الشريف بالنار وحملوا جثته على جمل وأتوا بها إلى أبي حراز ثم قطع جيكلر باشا رأسه وعلقه على عود ثم أرسله إلى الخرطوم فعلق فيها أياماً !!! فانظر إلى هذا الحقد الدفين على الإسلام وأهله .

وهنالك الشيخ عبد الله ود الشيخ حمد النيل شيخ العركيين كان أميراً على قومه من قبل المهدي ومعه الشيخ ود البحر وذلك بعد وقعة شيكان فلحقوا بالشيخ محمد ود البصير شيخ السمانية الذي كان يقاتل صالح المك في منطقة فداسي ونزل شيخ العركيين من جهة جنوب الخندق لمنع المدد من سنار ونزل الشيخ ود البصير في شمال الخندق لمنع المدد من الخرطوم وأرسل صالح المك إلى غردون

يطلب المدد ولكن مركز غردون كان حرجاً فلم يستطع إنجادهم كما أنهم يئسوا من مدد سنار ولكن غردون رفع رتبة صالح المك إلى درجة لواء !!! ورفع رتب كل ضابط في جيشه !!! تحميساً لهم على مواصلة القتال !!! وماذا تغني رفع الدرجات العسكرية لقوم أحاط بهم جند الله ورفع درجاتهم إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ؟!!! فيئس صالح المك من مواصلة القتال فاستسلم هو وحاميته .

وهنالك الشيخ عبد القادر أبو الحسني شيخ السمانية اليعقوباب حضر مع المهدي موقعة شيكان ثم ذهب مع أبي قرجة إلى فداسي لمساعدة الشيخ عبد الله ود الشيخ حمد النيل في حربه ضد صالح المك وبعد استسلام الحامية قصد سنار خرج عليه مديرها حسن بك صادق بمعظم العساكر وذلك في ١١/ ٧ / ١٨٨٤م فأوقعه شيخ السمانية في كمين بين أصحاب الأسلحة النارية من الوراء والحرابة (أصحاب الحراب) والأسلحة البيضاء من الأمام .

وانظر إلى شيخ الإسلام الإمام العلامة الأستاذ محمد البدوي شيخ الطريقة التجانية أدرك الإمام المهدي وجاهد معه الإنجليز والأتراك لكونهم أظهروا الفسوق والطغيان فاستحقوا لذلك التطهير بالسيف ومن مواقفه المشهورة في قول الحق منعه اللورد كرومر المندوب السامي لملك بريطانيا الذي يرجف من هيبته خديوي مصر منعه دخول المسجد بأمدرمان وقال (لا يصح دخوله المسجد) وكان الشيخ الإمام محمد عبده حاضراً فأفتى بصحة دخوله فقال الشيخ محمد البدوي (دخوله المسجد لا يصح وهو مشرك كافر والله تبارك وتعالى يقول إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام) ثم التفت إلى اللورد كرومر وانتهره نهرة شديدة تقهقر لها المندوب السامي البريطاني الذي يرجف من هيبته ملك مصر .

وهنالك الشيخ الطيب أحمد هاشم ابن الشيخ أحمد هاشم قاضي بربر وعالمها وأخوه شيخ الإسلام أبو القاسم أحمد هاشم أدرك المهدية وشارك في حروبها وكان وزيراً للأمير الصوفي الشيخ محمد الخير خوجلي التجاني وكان الشيخ الطيب أحمد هاشم هو المتردد بالرسائل بين الأمير والمهدي وصحب الشيخ محمد الخير في إمارته على دنقلا ثم شغل منصب أول مفتي للسودان وأقام في الإفتاء مدة ربع قرن .

وهناك الشيخ محمد الخير خوجلي شيخ الطريقة التجانية وأمير المهدية على بربر ونواحيها هاجر إلى المهدي في كردفان فجعله أميراً على بربر وأصحبه رسائل إلى رؤوس قبائلها يدعوهم فيها إلى طاعته والجهاد معه ضد الترك فرجع الأمير محمد الخير من عند المهدي في ٢٧ / ٤ / ١٨٨٤م ونزل في وادي بشارة فلقي الشيخ الصوفي أحمد الهدي شيخ الطريقة التجانية فبايعه على الجهاد ثم سار شمالاً يصحبه الشيخ أحمد الهدي وهو يدعو الناس في طريقه فيجيبونه حتى دخل المتمة في جيش كبير فلقي فيها الحاج علي ود سعد النفيعابي فبايعه على الجهاد ثم لحقه الشيخ محمد حمزة السعدابي الذي قطع التلغراف بين بربر والخرطوم وأرسل الأمير محمد الخير بعض رجال فقطع التلغراف بين بربر ومصر وكان قطعه من أكبر الضربات على غردون ثم وصل إلى الدامر فلقي فيها الشيخ الأمين أحمد المجذوب شيخ المجاذيب فبايعه على الجهاد وأرسل الشيخ محمد الخير رسالة من الدامر غلى حسين باشا مدير بربر وضابط الحامية هناك يدعوهم إلى التسليم وثم عاودهم بالإنذار إلى ثلاث مرات فلما رأى إصرارهم على الحرب سير عليهم الجيوش من الدامر تباعاً ثم وصل هو إلى بربر ١٢ / ٥ / ١٨٨٤م فنزل مع الحاج على ود سعد وعبد الماجد أبو لكيلك في حلة (الدكة)فحصر بربر من الشمال وأمر ود بنونة السعدابي فنزل في (قوز الفونج) وحصرها من الجنوب وحصرها البشاريون والجعليون من الشرق وبدأت المعركة في صبيحة الجمعة ١٦ / ٥ / ١٨٨٤م فكانت ملحمة من أروع الملاحم بقيت أمجادها تراثاً للمسلمين وسقطت بربر فسقط غردون فقطع دابر القوم الذين ظلموا .

وهناك الشيخ أحمد الهدي السوارابي . شيخ التجانية . أرسل إليه المهدي سيفاً وألف ريال والإمارة على دنقلا فلما نزل عليه الشيخ محمد الخير في وادي بشارة بايعه على الجهاد وسار معه إلى حصار بربر وأرسل خاله ود عبود بخطاب إلى الشيخ الطيب الشايقي السوارابي يستنهضه للجهاد فجمع الشيخ الطيب جموعه ونزل على دار الحكومة فسيطر على المواقع فيها واستلب الخزينة والشونة ثم سار في وجهه شمالاً يستنفر أهل البلاد للجهاد وكان مدير دنقلا مصطفى باشا ياور قد لحق به في منطقة (الكرو) شمال (دبة الفقراء) وباغت الشيخ الطيب بالهجوم فقتل فيهم

مقتلة عظيمة وشتت جموعهم وكان ذلك قبل سقوط بربر بيوم ولما سقطت بربر تحرك الشيخ الهدي في نحو أربعمائة مقاتل وجاء بلاد الشايقية ونادى بالنفير فاجتمع عليه الناس من الشايقية والشيخ النعمان ود قمر شيخ المناصير وبعض بادية الحسانية والهواوير فزحف بهم قاصداً الدبة وهاجم حاميتها التي كانت محصنة بالمدافع فقتل الشيخ نعمان ود قمر شهيداً وقتل من جيش الشيخ أحمد الهدي ٢٧٠٠ شهيد ثم جرت الملحمة الكبرى في يوم الخميس ٤ /٩ / ١٨٨٤م قرب (كورتي) وكان معركة عنيفة قتل فيها الشيخ الهدي شهيداً وقطع فيها مصطفى ياور باشا رأس الشيخ أحمد الهدي رحمة الله عليه وأرسله إلى سردار الجيش المصري بحلفا وطلب منه أن يرسله إلى الخديوي بمصر فكتب إليه السردار بأنه لم تجر العادة في هذه البلاد بمثل هذه الأفعال وقد نعى الإمام المهدي في رسالته التي أرسلها إلى (زقل) أمير دارفور بتاريخ ٨ ذي الحجة ١٣٠١ هـ الموافق ٢٩ / ١٢ / ١٨٨٤ م نعى فيها الشيخ أحمد الهدي وأشاد بجهاده في رفع راية الإسلام .

وهناك الشيخ العبيد ود بدر شيخ الطريقة القادرية الذي زحف بجيش عظيم على غردون في الخرطوم وحاصر المدينة من جهة الشرق ومعه أبناؤه الشيخ إبراهيم والشيخ العباس ومعهم الشيخ المضوي أحد شيوخ الطريقة القادرية وكانت أول المعارك في حصار الخرطوم هي المعركة التي قادها الشيخ العبيد ود بدر في ١٣ / ٣ /١٨٨٤م والتي تم فيها ترقية إبراهيم بك فوزي إلى درجة لواء !!! (على طريقة غردون في تحميس ضباطه على القتال) ثم توالت سلسلة الاقتحامات والمعارك واستطاع الشيخ العبيد ود بدر أن يصطدم بمحمد على باشا ـ أفضل القادة العسكريين لدى غردون ـ وأن يهزم جيشه وأن يقتل محمد على باشا وكان وقع هذا الخبر على غردون شديداً حتى أنه أقام عزاءً رسمياً عزاه فيه رؤساء العسكرية وقنصل اليونان ثم جرت بعد ذلك الملاحم التي انتهت بسقوط الخرطوم ومقتل غردون باشا وقيام دولة الإسلام .

رضي الله عن السادة الصوفية فقد أبلوا بلاء حسنا في جهادهم الأصغر والأكبر ورفعوا راية الإسلام عالية وكانوا هم النموذج القدوة في تزكية النفس وفي

جهاد العدو . الجهاد الأصغر والأكبر . وسوف تظل منارة الإسلام عالية شامخة في سماء المجد مادام هؤلاء السادة موجودين بيننا .

الجهاد في سبيل الله : الطريقة التجانية أنموذجاً

في الجزائر لم يكن الاستعمار الفرنسي احتلالا عسكرياً أو استنزافاً اقتصادياً فحسب وإنما كان يريد إلغاء شخصية الشعب وتذويبها . لقد كان الاستعمار في الشرق العربي يعرف أن العرب سيظلون عرباً ولذلك لم يفكر يوما من الأيام أن يجعلهم إنجليزاً أو فرنسيين أما في الجزائر فقد حاول أن يجعلهم فرنسيين أو يجعلهم (لا شيء) ولذا لاذ الشعب العربي المسلم في الجزائر بالدروع التي هي أقوى الدلالات على شخصيتهم وأقوى ما يميزه عن أوروبا كلها ... دروع الإسلام ... ممثلة في شيوخ الصوفية وكلما كان الاستعمار الفرنسي يمعن في تمزيق شخصية الجزائريين ومحوها كان الجزائريون يزدادون اعتصاماً بهذه الدروع .

وكان يوماً مشهوداً في الجزائر يوم صلى الجزائريون أول جمعة في مسجد (كنشاوة) فهذا المسجد الجزائري القديم كان آخر حصن تحصن به المقاتلون الجزائريون يوم احتل الفرنسيون البلاد فسقط في صحنه أكثر من ثلاثمائة شهيد وكان أول عمل قامت به فرنسا أن حولته إلى كنيسة كاثوليكية ولقد صمم الجزائريون بعد ذكرى الثورة في أول نوفمبر أن تكون أول صلاة جمعة لهم في هذه الكنيسة بعد أن أعادوها مسجداً .

وقد كانت ملاحم الصوفية في سبيل الله واستعادة هوية الأمة المسلمة شاهداً ومشهوداً فانظر إن شئت إلى موقف التجانيين والقادريين والشاذليين والدرقاويين وغيرهم ... ترى أمراً يملأ العين ويشرح الصدر ويعظم في القلب ... خذ الطريقة التجانية مثلاً فقد ثار الشريف أحمد عمار (حفيد الشيخ التجاني) في وجه فرنسا ثورة امتدت لعدة سنوات وفي أوائل سنة ١٨٦٩ اقتحمت الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال (سونيز) بلدة عين ماضي مقر الشريف أحمد عمار وقمعت الثوار واعتقلت الشريف عمار وسجنته في مدينة الجزائر سنة كاملة ثم قامت في الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا خافت فرنسا على وضعها الاستراتيجي في الجزائر أن يهتز فيؤثر على حربها في أوروبا ولم تخش إلا ذلك الرجل . الشريف عمار . فنفته من الجزائر واعتقلته في فرنسا ثم خشيت أن يقوم أخوه الشريف محمد البشير بالثورة أيضاً فاعتقلته وألحقته بالمنفى وبقيا طوال الحرب السبعينية معتقلين في فرنسا .

ثم جاء أبناء الشريف محمد البشير ليواصلوا الجهاد والحرب على فرنسا فهذا هو الشريف محمود بن الشريف البشير يتعاون تعاوناً وثيقاً مع الأمير عبد الكريم الخطابي أمير الجهاد في حرب الريف .

وقد خرج الشريف ابن عمر . وهو الابن الأكبر للشريف محمد الكبير بن الشريف البشير . وطاف العالم العربي والإفريقي فدخل مصر والسودان والسنغال ومالي ونيجيريا والكنغو يشرح القضية الجزائرية ويدعو المسلمين للتكاتف وتأييد إخوانهم في الجزائر وكانت فرنسا تراقب نشاطه ولما عاد لجزائر تم استجوابه واعتقاله . وقد نشرت المصور المصرية في عددها الصادر في ١٤ / ١٢ / ١٩٥٦ صور بعض زعماء جيش التحرير الجزائري وكان أحد هؤلاء الزعماء من التجانيين . وفي ١٨ / ٣ /١٩٥٧ أذاعت محطة (صوت العرب) من القاهرة أن الفرنسيين اعتقلوا الشريف ابن عمر زعيم التجانيين والسيد باش آغا حميدة والسيد مولودي ووجدوا عندهم صلة وثيقة بالثوار . وهؤلاء الثلاثة من زعماء التجانيين . لقد تربى التجانيون على بغض فرنسا التي حاولت مسح الشخصية المسلمة ومحو الهوية العربية .

وانظر ما كتبه عبد الله شليفر مستشرق أميريكي مسلم له عدة دراسات منها كتاب (سقوط القدس) وكتاب (فكرة الجهاد في العصر الحديث) وقد نشر بحثاً بعنوان : [**الشيخ عز الدين القسام : حياته وفكره**] قال في بحثه :

[في ٢١ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٣٥ نشرت صحيفة جيروزلم بوست على ثلاثة أعمدة في صدر صفحتها الأولى نبأ اصطدام رجال الشرطة البريطانيين بمسلحين عرب بجوار (جنيين) واصفة المسلحين برجال العصابات وقطاع الطرق ذاكرة أن الشيخ عز الدين القسام كان بين القتلى ناعتة إياه بمنظم العصابة غير أن دوائر الاستخبارات البريطانية والصهيونية أعلم بالحقيقة فهي تعرف أن الشيخ عز الدين القسام رئيس لجمعية الشبان المسلمين وخطيب واسع الشعبية في جامع الاستقلال بجوار محطة حيفا الحديدية ومأذون في محكمة حيفا الشرعية ثم إنه كان تحت المراقبة وقد استدعي للتحقيق معه ووجه إليه التحذير من الدعوة العلنية للجهاد ضد الاحتلال البريطاني والاستعمار الصهيوني خلال العقد المنصرم ثم إنه كان متهماً بتنظيم سلسلة من الهجمات المسلحة السرية على المستوطنين اليهود

والموظفين البريطانيين في حيفا وجوارها ابتداءً من أوائل الثلاثينيات ... وانتقل إلى جبال بجوار (يعبد) بين نابلس وجنيين في أوائل تشرين الثاني نوفمبر وبعد مقتل شرطي يهودي عامل في القوات البريطانية طوقت مجموعة عز الدين القسام بقوة كبيرة من الشرطة والجيش البريطاني ودعيت للاستسلام غير أن عز الدين القسام دعا رجاله للمقاومة والاستشهاد وفتح النار على القوة التي كانت تطوقه وقد ألهب تحديه والطريقة التي استشهد به حماس الشعب الفلسطيني ... وبعد خمسة أشهر استطاعت مجموعة من المجاهدين بقيادة أحد رفاق عز الدين القسام أن تنصب كميناً لمجموعة من اليهود في شمال فلسطين وفي الأسابيع اللاحقة نشأت في مختلف أنحاء فلسطين مجموعات من الفدائيين في القرى والمدن بقيادة آخرين من أنصار عز الدين القسام **وبذلك بدأت ثورة عام ١٩٣٦ .**

ولد عز الدين القسام في جبلة في منطقة اللاذقية في سوريا عام ١٨٨٢ م . ١٣٠٠هـ وكان جده وشقيق جده اللذان قدما إلى جبلة من العراق شيخين بارزين في الطريقة القادرية كذلك كان والده عبد القادر موظفاً في المحكمة الشرعية في ظل الحكم العثماني وهناك قول آخر بأن والده كان يتبع الطريقة النقشبندية أيضاً والتي لعبت دوراً ملحوظاً في مكافحة الفتوح الاستعمارية في القرن التاسع عشر في سوريا .

وفي أوائل العشرينات التقى عز الدين القسام بالشيخ الجزائري محمد بن عبد المالك العلمي الذي عمل على الحصول على إذن لزوجة عز الدين القسام وبناته للخروج من سوريا واللحاق بالشيخ في فلسطين **وللشيخ الجزائري أثر آخر على الشيخ عز الدين القسام فهو مقدم في الطريقة التجانية جاب الشرق العربي في أوائل القرن العشرين وأنشأ فروعاً وزوايا لهذه الطريقة في مصر والسودان وليبيا وسوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وأدخل عز الدين القسام وثلاثة آخرين في هذه الطريقة حتى بلغ رتبة مقدم فيها وإذا كان عز الدين القسام لم يسع إلى إدخال الآخرين في هذه الطريقة فإن حركة المجاهدين التي بناها في حيفا كانت على أساس الطريقة التجانية .**

<u>في حياة عز الدين القسام شيء يصعب إدراكه حتى على أشد المعجبين بالحركة القومية العربية</u> فهذا أحمد الشقيري يكتب بتأثر عن محاولته كمحامي قوي شاب للدفاع عن القساميين الذين نجوا بعد معركة (يعبد) ويشير إلى ذهوله أمام هدوئهم ورباطة جأشهم بانتظار المحاكمة . لقد اعتقد أحمد الشقيري في بحثه عما يدافع به عنه أن القساميين تعرضوا لتعذيب وإكراه على الاعتراف **<u>والواقع أنهم اعترفوا بحرية بإسهامهم في المعركة وقالوا إنهم مجاهدون في سبيل الله ولن يصيبهم إلا ما كتبه الله لهم</u>]** . انتهى ما نقلناه من بحث المستشرق المسلم عبد الله شليفر .

وفي كتاب (الإسلام والنصرانية في إفريقيا) لمؤلفه الفرنسي (بوني موري) تحت عنوان **[التجانية]** :

[هنالك الطريقة التجانية مؤسسها أحمد بن محمد التجاني المتوفى في فاس سنة ١٧٨٢ وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ومع هذا ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تقف التجانية عن استعمال القوة في مخاصمة أقرانهم ونشر العقيدة الإسلامية وأهم مراكز التجانية عين ماضي على سبعين كيلومتراً في الجنوب الشرقي من الأغواط وفي تماسين وهم كثيرون في مراكش ولقد تبع الطريقة التجانية عدد كبير من أهل (ماسينا) في السودان (وأهالي فوتا تورو) و(فوتا جالون) وأمة (البله) **<u>وصاروا من أشد أنصار الإسلام</u>** وانضموا حول راية الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة (١٧٧٩) في قرية الفار من بلاد (ديمار) فرباه أبوه وعلمه ثم حج البيت الحرام وزار المدينة وقرأ مدة في الأزهر وعاد إلى (بورنو) سنة ١٨٣٣ ثم ذهب إلى بلاد الهوسا وأخذ يعظ الناس بالرجوع إلى عقيدة السلف وفي أثناء ذلك جاء أخوه ومضى به إلى بلاد (فوتا السنغال) فعرج على بلاد (البمبارا)وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة لكنه تغلب عليها وانضم إليه في بلدة (كونكان) رجل يقال له محمدو سار على طريقته وأدخل في الإسلام فرقة من (البله) يقال لهم (الواسو لونكه) ولما عل كلمة الحاج عمر ونظر إليه الناس نظرهم إلى المهدي حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمي بلاد (غابون) وهزم البمبارا الوثنيين شر هزيمة في (مونيا) واستولى بعدها على (كونياكري) سنة

١٨٥٤ وجعل مقره العام في (نيورو) ثم استولى على مملكة (سيقو) وعلى بلاد ماسينا وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥م وهو في حرب مع مسينا ثم **وقد خلف للطريقة التجانية سلطنة إسلامية عظيمة** في وسط بلاد الزنوج الفتيشيين ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومريداً آخراً له اسمه أحمدو شيخو وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر وأثارا أهالي فوتا تورو والسوننكه الذين في بلاد كأراته والتوكولور الذين في السنغال على فرنسا **فصار وجود هذه السلطنة التجانية في وسط السودان خطراً عظيماً على سيادتنا وكان تحرير الخلاف هو هذا : هل يتم تمدين السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها المبشرين المسيحيين أم على يد التجانية رسل الإسلام ؟** فالكولونيل (أرشينارد) بأخذه (جنة) و (بند جاقار) أوقف غارة التجانية في هذا القسم من أفريقية ويسر فتح السودان بين يدي المدنية الأوروبية ثم عقب ذلك فتح الكولونيل (دور غنيس ديبورد) لبلد باماكو واستلحاق القومندان (غلييني) لبلاد (فوتا جالون) وافتتاح الكولونيل (أرشينارد) لبلاد (ماسينا) وتتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال (تمبكتو)في ١٠ يناير ١٨٩٤ **مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسيين وأعاد ذكرى ظفر (شارل مارتل) في بواتييه بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل إفريقية في ما لو لم يتم هذا الظفر]** انتهى كلام (بوني موري) انظر كتاب (حاضر العالم الإسلامي) .

فها هو رأي الفرنسيين في الطريقة التجانية وكيف أنهم يعتبرونها أكبر عدو لهم في المنطقة وأنهم هم الذين كانوا يعوقون تقدم الاستعماريين الفرنسيين
ولقد علق الأستاذ الأمير شكيب أرسلان على كلمة هذا الكاتب بونه موري التي في آخر المقال أعلاه وهي :

[أعاد ذكرى ظفر (شارل مارتل) في بواتييه بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل إفريقية في ما لو لم يتم هذا الظفر] قال :

[يشير إلى أن أفريقية كانت تكون كلها إسلامية لولا قضاء الفرنسيين على سلطة التجانية هذه كما أن أوروبا كانت تكون إسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في بواتييه وهي الكلمة التي يتفق عليها مؤرخو الأفرنج] .

يقول د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم في كتابه (المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا) :

[**وفي عام ١٨٥٢ أعلن الحاج عمر الجهاد ضد الوثنيين في السودان الغربي واستطاع في خلال عشر سنوات أن يسيطر على كل السودان الغربي من حدود مدينة تمبكت حتى حدود السنغال الفرنسية** ورغم أنه اعتبر نفسه مصلحاً دينياً وأعلن الزهد في الأمور الدنيوية المؤقتة إلا أنه كان مستعداً لتحقيق آماله من خلال الطرائق السياسية والعسكرية **واعتبر الحاج عمر أن رسالته المقدسة هي تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب ووضع حد للوثنية وتطبيق الشريعة الإسلامية** ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية واتبع أسلوب العنف في تحويل الناس الوثنيين إلى الشريعة الإسلامية وقام ببناء المساجد ونشر المدارس القرآنية في كل أرجاء المنطقة التي امتدت إليها حركته الإصلاحية .

وكان حماس جيشه واضحاً في تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية وكان هذا الحماس سبباً في زيادة عدد الأتباع الذين انتشروا على نطاق واسع يدافعون عن الدين ويعيدون للإسلام مجده في هذه المنطقة لدرجة أن حاكم السنغال الفرنسي عبر عن دهشته لهذا الحماس الديني واندفاع المسلمين بكل شجاعة وقوة نحو نيران الفرنسيين سعياً في الاستشهاد في سبيل الله والوطن ......

وكان الحاج عمر قد أرسل إلى المسلمين في سانت لويس يطلب منهم شن حرب مقدسة ضد حكامهم الوثنيين والمسيحيين ووعدهم بمحاربة الفرنسيين حتى يطلبوا السلام منه وقال : (إن الحرب ضد الوثنيين يجب أن تستمر حتى يوافقوا على دفع الجزية) .

وكانت هذه الدعاية التي نشرها الحاج عمر على طول نهر السنغال ضد الفرنسيين من العوامل التي جعلت القائد الفرنسي فيدهرب يخشى قوة الحاج عمر ويفكر في دراسة الموقف جيداً على نهر السنغال بل ذهب شخصياً في إحدى السفن إلى باكل لمعرفة الأخبار على الطبيعة وأدرك فيدهرب أن الحاج عمر يرغب في أن يدفع الفرنسيون ضرائب له بالإضافة إلى منعهم من إقامة مراكز عسكرية على طول شواطئ النهر وأكد فيدهرب في مراسلته المستمرة إلى باريس على أن

الحاج عمر ينوي شن هجوم شامل على الفرنسيين أسوة بالأمير عبد القادر الجزائري وفي فبراير عام ١٨٥٦ كتب إلى وزير المستعمرات والبحرية قائلاً (إن الحاج عمر ينظم لثورة عامة ضدنا) .

كل هذه الأمور كانت سبباً في أن يتحفز الفرنسيون لاتخاذ إجراءات عسكرية لمواجهة خطط قائد المسلمين وترتب على ذلك قيام الفرنسيين ببناء قلعة في مادينا في مقاطعة كاسو (Khasso) ووقع فيدهرب معاهدة الصلح والتجارة مع سامبالا ملك كاسو .

وبعد أن ثبت فيدهرب مركز الفرنسيين على طوال نهر السنغال بدأ يسعى لعقد معاهدة سلام مع الحاج عمر فأصدر قبل سفره إلى باريس تعليمات إلى نائبه موريل بشأن التفاوض مع الحاج عمر على مشروع الاعتراف به كملك لكأرتا مقابل أن يحد من نشاطه في هذه المنطقة .

ويتضح من هذه المحاولات أن الفرنسيين يحاولون التعامل مع الحاج عمر مثلما يتعاملون مع الأمير عبد القادر الجزائري بعد توقيع اتفاق تافنه (Tafna) معه في عام ١٨٣٧ ويعني هذا تدعيم موقفهم قبل الدخول في توسيعات كبرى وبعد عودة فيدهرب إلى السنغال في نهاية عام ١٨٥٦ بدأ الحاج عمر كفاحه المباشر مع الفرنسيين بمهاجمة مركز مادينا وهو الأمر الذي ضيع فرص السلام بين الطرفين وكان الحاج عمر يرغب بعد غزو كأرتا في أن يضم وطنه في فوتا تارو إلى المناطق التي سيطر عليها خصوصاً وأن سكان المنطقة كانوا من المتعصبين لقضيته وكانوا يكرهون الحكم المسيحي الذي يعتبر بمثابة الشوكة في صدورهم ذلك لأن الفرنسيين يحاولون تدمير القرى التي يسكنها أعوان الحاج عمر .

وفي الشهور الأولى من عام ١٨٥٧ بدأ الحاج عمر هجومه على قلعة مادينا واحتل إحدى المناطق في كاسو وتدعى تومورو (Tomoro) دون قتال واقترب من النهر في ١٤ أبريل هاجم سابوسيري (Sabousire) عاصمة مقاطعة الفرنسيين لوجو (Logo) واتخذها مقراً لعملياته العسكرية ضد الفرنسيين وفي العشرين من أبريل وصل جيش المسلمين إلى منطقة مادينا حيث

بدأ الحصار وكان الجيش يسير في ثلاثة طوابير بلغ عددها ١٥٠٠٠ مقاتل وكانت حامية المدينة تضم ٦٤ رجلاً بقيادة بول هول (Paul Holle) الذي استطاع إرسال أحد رجاله إلى باكل ليخبر القيادة الفرنسية عن الوضع في مادينا وفعلاً صدرت الأوامر لإحدى السفن الفرنسية بالتوجه إلى مكان العمليات العسكرية في مادينا لكن تحطمت هذه السفينة على إحدى الصخور ومنع الحاج عمر رجالها من الوصول إلى القلعة المحاصرة وظلوا في حطام السفينة .

وفي أوائل يونيه قرر فيدهرب أن يقود بنفسه حملة لإنقاذ حامية مادينا ووصل بقواته إلى حطام السفينة المحاصرة لكن جنودها كانوا ماتوا من الحمى وفي الوقت نفسه كان مصير بول هول وحامية مادينا يتوقف على حصول حملة الإنقاذ ووصل فيدهرب فعلاً إلى المنطقة في ١٨ يوليه أي بعد حوالي ثلاثة أشهر من بدء الحصار فوجد عدداً من سكان المدينة قد ماتوا جوعاً بسبب رفض بول هول الاستسلام لقوات الحاج عمر ونجح فيدهرب في إنقاذ مادينا ذلك النجاح الذي كان امتحاناً لقوات الحاج عمر حيث توقف نشاطه في المنطقة لمدة عامين بل تحرك من سابوسيري ولم يعد لهذه الأماكن إلا في عام ١٨٥٩ عندما هاجم المركز الفرنسي في ماتلم (Matam) الذي كان أيضاً تحت قيادة بول هول الذي أصاب قوات الحاج بخسارة فادحة حيث نقص عدد الجيش إلى النصف أي من ١٥٠٠٠جندي إلى ٧٠٠٠ جندي .

بعد هذه النكسة التي حلت بقوات الموحدين انسحب الحاج عمر إلى جيومو (Guemou) التي تبعد حوالي أربعين كيلومتراً عن باكل وبنى حصناً هناك **وبدأ يعرقل تجارة الفرنسيين على طول نهر السنغال** ولهذا قرر فيدهرب تدمير حصن جيومو وعهد بهذه المهمة إلى بعثة استكشافية بقيادة الضابط فارون (Faron) وفي ٢٥ أكتوبر هاجم فارون الحصن واستولى عليه بعد أن أصيب بعدة جروح لكن الحاج عمر كان قد انسحب منه قبل وصول البعثة الفرنسية وقتل ابن أخي الحاج عمر ودمر الحصن تماماً ....

شعر الحاج عمر أن النضال ضد الفرنسيين لن يتوقف وأن طمع الفرنسيين لا حدود له وأن محاولات عقد الصلح معه ما هي إلا مرحلة مؤقتة في خطط

الفرنسيين لابتلاع ممتلكاته وضمها للسيطرة الفرنسية ولذا فإنه قرر ترك هذه المنطقة والاتجاه إلى منطقة النيجر على أمل التحالف مع زعماء المسلمين هناك في محاولة لتوحيد صفوف المجاهدين ضد عدو أوروبي يطمع في السيطرة على بلادهم كانت هذه هي إستراتيجية الحاج عمر في مرحلة سدت فيها كل السبل أمام إيقاف التوسع الفرنسي وهي إستراتيجية تدل على بصيرة قوية وعقلية عسكرية تواجه هذه التحديات الأوروبية لكن أفكار الحاج عمر لم تجد من يفهمها في المناطق الجديدة التي أحست انه جاء لغزوها والقضاء عليها فتحالفت ضده وتآمرت عليه في وقت هو في أشد الحاجة إلى مؤازرتها والوقوف معه ضد العدو المشترك ولهذا ضاعت جهود هذا المناضل الإسلامي في صراعات جانبية مع هؤلاء الزعماء المسلمين واضطر إلى الدخول في حروب ضدهم] .

وهكذا استشهد هذا المناضل الإسلامي وهو يناضل من أجل بناء دولته الإسلامية عن عمر يناهز السبعين عاماً حاول خلالها مقاومة التوسع الفرنسي بكل ما أوتي من قوة وترك لأبنائه مسئولية هذا العبء الكبير ...

كان جهاد الحاج عمر وأبنائه مثالاً من الشجاعة والإقدام وكان الإصرار على المحافظة على إمبراطورية إسلامية ناشئة في فترة كان التكالب الأوروبي على القارة قد اتخذ شكلاً عسكرياً وجعل الحاج عمر يخوض المعارك في جبهتين : إحداهما داخلية مفككة ومتصارعة والأخرى خارجية منظمة وعلى أهبة الاستعداد لخوض المعارك للاستيلاء على أراضي المسلمين لذا كان الجهاد صعباً والمقاومة عنيفة .

كان على الحاج عمر أن يعمل بشكل مستمر على استتباب الجبهة الداخلية وأن يواصل الجهاد للقضاء على الوثنيين وفي الوقت نفسه مقاومة أطماع الفرنسيين ومن هنا طال أمد النضال واستمر جهاد الحاج عمر وابنه أحمدو مدة قاربت نصف قرن من الزمان أرهق فيها المسلمون الفرنسيين الذين اضطروا إلى تغيير القيادة أكثر من مرة وتحملت الميزانية الفرنسية نفقات كثيرة وتكبدت القوات الفرنسية أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى لكن رغم كل هذا فلقد فعل التسليح الأوروبي دوره في هذه اللقاءات وحسم الموقف لصالح الفرنسيين إلى حين يستعد

المسلمون لجولة جديدة من النضال خصوصاً وأن مبادئ العقيدة قد ترسخت في القلوب ولم تستطع قوى البغي والقهر والعدوان أن تنال منها وهذه من أعظم ثمار جهاد الحاج عمر التكروري الذي استشهد في المعارك العسكرية وهو يدافع عن دين الإسلام وحضارته .

وإذا كان الجهاد في سبيل الله قد واجه المسيحيين في غرب أفريقيا وانتهى اللقاء لصالح قوى المسيحيين إلا أن الطريقة التجانية ظلت كامنة في النفوس عالقة في القلوب بل ازداد المسلمون تمسكاً بها وحافظوا على تقاليدها في وجه التيارات المسيحية والوثنية وظلت هذه الروح الثورية الدينية تمارس نشاطها وتحافظ على العقيدة الإسلامية حتى هبت كل شعوب المنطقة في وجه الاستعمار الفرنسي وأجبرته على أن يحمل عصاه ويرحل عن أرض القارة الإفريقية التي عادت للإسلام والمسلمين .

كان الحج عمر مغامراً من نوع جديد ورجلاً صلباً لا يلين لديه آمال عراض لبناء إمبراطورية تتخذ من الشريعة الإسلامية أساساً لها ومنهاجاً وما كان يدري أن الطريق ملئ بالأشواك وأن المنطقة التي اختارها لبناء دولته تكتظ بالمشكلات الداخلية والصراع الأوروبي عليها فناضل وكافح وفتح جبهة هنا وجبهة هناك واستخدم أسلوبي الدبلوماسية والحرب كان يهادن في جبهة ليتفرغ للأخرى وساعده كل هذا على نشر الطريقة التجانية التي تعمقت في نفوس الناس وصارت تضارع الطرق الصوفية الأخرى ولو فهم المسلمون ما يرمي إليه هذا الشيخ المجاهد والجهود التي يبذلها لبناء دولة إسلامية ولو وقفوا بجانبه في صراع الأوروبيين لتغير الوضع تماماً لكن للأسف الشديد عانى الحاج عمر من المسلمين والوثنيين الذين تكاتفوا ضده واعتبروه غازياً وعقدوا حلفاً ضده وهو في أمس الحاجة لجهودهم وحاصروه في حمد الله وهو يناضل من أجل الوقوف في وجه الفرنسيين وسقط هذا الزعيم شهيداً برصاص المسلمين الذي تتبعوه وحاصروه حتى قضوا على جهوده واستشهد الحاج عمر وهو في روعة انتصاراته وفي قمة صراعه مع الفرنسيين الذين عانوا كثيراً على يديه .

ورغم سقوط إمبراطورية التوكولور إلا أن أتباع الحاج عمر قد اكتسبوا شهرة القيادة الإسلامية في السودان الغربي وانتشرت التجانية بعد ذلك وقاومت التبشير المسيحي الذي اجتاح إمبراطورية التوكولور في أعقاب السيطرة الأوروبية ورغم سقوط الإمبراطورية سياسياً إلا أنها استمرت تمارس حياتها الدينية وحافظت على تراث الإسلام وحضارته أمام موجات الغزو والتوسع الأوروبي والتبشير المسيحي .

إن عداوة أهل الطريقة مع سائر المستعمرين معروفة عند المنصفين ولو ذهبنا نقص عليك عداوتهم مع الاستعمار الانجليزي في مصر والسودان وفلسطين لطال بنا الكلام .

وبقي تنبيه يجب أن نلفت النظر إليه **أن الصوفية في عداوتهم مع المستعمر لا يعادونه لأنهم صوفية وإنما لأنهم مسلمون يغارون على دينهم ويعلمون أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه وأنه ليس للمسلم أن يذل نفسه كما ورد في الحديث الشريف فمن هذه القاعدة انطلقوا وعن هذا المنظور توجهوا فأهل الإسلام كلهم ـ صوفية وغيرهم ـ يد واحدة على جميع المستعمرين بجميع أنواعهم .**

الجهاد في سبيل الله : الطريقة القادرية أنموذجاً

يقول الدكتور عبد الله عبد الرازق إبراهيم في كتابه (المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا) :

[من البديهي ونحن نعالج المقاومة الإسلامية للاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية أن نحدد بشكل سريع الملامح الرئيسية لذلك التكالب الاستعماري على القارة في أواخر القرن التاسع عشر تلك الفترة التي توافقت مع جهاد زعماء المسلمين في القارة وخصوصاً في إفريقية جنوب الصحراء ومحاولات زعماء حركات الجهاد أن ينشروا الدين الإسلامي الصحيح بعد قيام حركات الإصلاح والتجديد بزعامة الشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجيريا وانتشار حركته على نطاق واسع وتأثر العلماء المسلمين في غرب القارة بتلك الحركة الإصلاحية التي وجدت صداها في إمبراطورية الحاج عمر الفوتي التكروري وفي الحركة التي قادها الزعيم المسلم الشيخ محمد الأمين في بلاد التكرور أيضاً في حركة الجهاد الإسلامي للزعيم الإمام ساموري توري ولم تتوقف هذه الحركة الإسلامية عند هذه المنطقة من غرب القارة بل امتدت إلى منطقة بحيرة تشاد حيث ظهرت حركة زعيم آخر هو رابح فضل الله وامتد هذا الأثر الجهادي إلى بلاد الصومال بزعامة السيد محمد عبد الله حسن ومن الطبيعي أن تواجه هذه الحركات الإسلامية مقاومة عنيفة من الدول الاستعمارية التي كانت قد خططت لاستعمار القارة الإفريقية بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/١٨٨٥م ....

وبدأ التوسع الفرنسي الكبير في غرب إفريقيا في حوض نهر السنغال حيث التقت القوات الفرنسية بإمبراطورية التوكولور بزعامة أحمدو شيخو نجل الحاج عمر الفوتي التكروري زعيم الطريقة التجانية في القارة الإفريقية وخليفة والده في حكم الإمبراطورية واستمرت الاشتباكات بين القوات الفرنسية وقوات الشيخ أحمدو حتى انهارت هذه الإمبراطورية ودخل الفرنسيون وادي النيجر الأعلى واستولوا على باماكو في عام ١٨٨٣م كما التقت مجموعة من الفرنسيين بساموري توري أحد قواد المسلمين من بلاد الماندنجو في المنطقة الشاسعة ما بين حوض نهري الفولتا العاليا والنيجر وصار خصماً عنيداً للفرنسيين ورغم احتلالهم لمعظم مناطقه في عام ١٨٩١ إلا أنه لم يهزم نهائياً إلا في عام ١٨٩٨م .

ويقول د. عبد الله عبد الرازق أيضاً :

[إن الصراع بين إمارات بلاد الهوصا لم يساعد إلا على التفرقة وعدم الاستقرار وعدم التركيز على النواحي الثقافية أو الدينية فصار الدين الإسلامي غريباً بين السكان واختلط العادات الوثنية بالتقاليد الإسلامية وصار الحكام يحملون لقب المسلمين شكلاً دون فهم واع لأصول هذا الدين **وعندما أحس أحد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الوثنيين أعلن الجهاد في سبيل الله لإعادة الدين الإسلامي إلى أصوله وقواعده وصارت إمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الإسلامية الكبرى التي غيرت مجرى حياة السكان وأعادت للدين الإسلامي هناك مكانه لم يحققها في القرون السابقة وصار الجهاد الفولاني لإخماد البدعة وإحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودي ..... إن هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الإسلامية فضل كبير في نشر الدين الإسلامي على نطاق واسع في غرب إفريقيا وما زالت نيجيريا الإسلامية تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي جعلها أكبر دولة إسلامية في غرب إفريقيا بل في إفريقيا بأسرها ولم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود إعلان حرب على الوثنيين بل تعداه إلى إقامة دولة إسلامية حملت لقب الخلافة الإسلامية في سوكوتو وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوروبيين الذين جاؤوا غازين ديار الإسلام والمسلمين فكانوا حماة الدين وشهداء العقيدة الإسلامية في أوائل القرن العشرين** .

كانت الهجرة إلى مدينة جودو بداية تأسيس إمبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها وأخذ الشيخ معه الأنصار والأتباع إلى أطراف الصحراء وهنالك أقروا له بالطاعة والولاء وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣م كما حمل لقب خليفة في بعض الأحيان وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده .

كانت هذه البيعة بداية الجهاد وإيذاناً بتأسيس الخلافة الإسلامية ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي إلى الدور الإيجابي الجديد وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوصا واصدر الشيخ (وثيقة أهل السودان) التي صارت إعلاناً رسمياً للجهاد حيث حدد الشيخ الأسس التي بنى عليها الجهاد وأقرت هذه الوثيقة مبادئ منها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعاً وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعاً وأن الجهاد واجب إجماعاً وأن قتال البغاة واجب إجماعاً .

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم إخوانه الأمراء في كاتسينا وكانو ودورا يطلب منهم يد المساعدة لأنه أهمل إطفاء شرارة من النار في إمارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها وصار فوق احتماله القضاء على خطورتها .

تزعم سلطان جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين ولم يجد الشيخ بداً من إعلان الجهاد في سبيل الله فلبى تلاميذه النداء لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس تنتهي بل كان الارتباط عميقاً بالحب والتقدير فكانوا له مؤيدين تكبدوا المعاناة وتحملوا عبء الكفاح عندما هاجم الشيخ إمارة جوبير إثر قرار حاكمها بتأديب الشيخ عثمان فحدث الالتحام وبدأت الحرب **وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم إلى مرحلة الهجوم المسلح وبعد أن أغار حاكم جوبير على قرى المسلمين وممتلكات الموحدين** .

وفي الرابع من يونيو عام ١٨٠٤م تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبد الله بن فودي الذي أخلى مواقعه في جودو توقعاً لهجوم من سلطان جوبير واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات البغي والعدوان ودارت عليها الدائرة وهرب من وجد سبيلاً لذلك وسقط في ساحة المعركة الكثير وتفرق شمل الأعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد لكن النصر لم يكن نهائياً لأن قوات المشركين عادت بعد أن جمعت قواتها في عام ١٨٠٥م وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته ودارت معركة تسونسو التي هزم فيها المسلمون في البداية وراح منهمك أكثر من ألف قتيل ولكنهم صمدوا للهجوم .

استمرت الحرب سجالاً بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على إمارة كيبي (KEBBI) واتخذتها عاصمة للجهاد وتوالى سقوط إمارات الهوصا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥م واستمر النصر حليف الشيخ وأتباعه حتى تحقق النصر المبين ودخل عاصمة الإمارة وتسمى الكالاوا في عام ١٨٠٨م وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه وانتهت مقاومة الوثنيين وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا وتوافدت القبائل زرافات ووحداناً إلى معسكر الشيخ تعلن الدخول في الإسلام والانضمام إلى حلف المسلمين وتوسعت إمبراطورية الفولاني وتكونت إمارة جديدة **وأعطى الشيخ أعلاماً لأتباعه لإعلان الجهاد في مختلف المناطق فتوسعت رقعة الدولة ودخل الناس تحت راية الجهاد وانتقل الشيخ إلى مدينة سيفاوا عام ١٨٠٩م بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو** .

وعادت المنطقة إلى حكم المسلمين ولأول مرة تشكلت وحدة سياسية كبرى أطلق عليها إمبراطورية الفولاني واختلفت التفسيرات حول هذا الجهاد فمنهم من رأى فيه صراعاً سياسياً بين الهوصا والفولاني استخدم الفولاني عامل الدين كهدف أو مناورة عسكرية من اجل تحقيق أهدافهم والسيطرة الفولانية على بلاد الهوصا أما العالم النيجيري عبد الله سميث فيرى في الحركة أكثر من محاولة مجموعة من الرجال المحرومين من اجل السيطرة السياسية لصالحهم بل هي حركة فكرية تهدف إلى خلق مجتمع مثالي تسوده الشريعة الغراء .

وحاول أعداء الشيخ تفسير الجهاد على أنه جهاد يخفي وراءه أطماعاً سياسية بل ذهب فريق آخر إلى أن هذه الثورة قد خططت من أجل مساعدة الفولاني على السيطرة على أمور البلاد وتحقيق امتيازات كانوا قد حرموا منها من قبل .

لكن مهما اختلفت الآراء حول أسس الجهاد فإن الجميع يتفق على أن الحركة شمولية ارتكزت أساساً على الناحية الدينية وأن الشيخ عثمان نفسه حدد الغرض من الجهاد في وثيقة أهل السودان وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والهجرة من بلاد الكفار وتنفيذ أحكام الشرع وقتال الملك الكافر الذي لا يقول (لا إله إلا الله) .

وقامت دولة الفولاني على نظام الخلافة الإسلامية وصار الخليفة يشرف على كل إمارات الدولة التي أحيت الخلافة الإسلامية التي كانت أيام مجد العباسيين وتأصلت جذور الدعوة الإسلامية فنمت وترعرعت وآتت أكلها فتمسك المسلمون بالشريعة الغراء وساد الأمن الذي كانت تحكم به المنطقة وازدهرت الحضارة الإسلامية في كل أرجاء الإمبراطورية .

وفي عام ١٨١٢م اقتصر دور الشيخ على التأليف والوعظ والإرشاد بعد أن قسم الإمبراطورية إلى قسمين : قسم شرقي تحت إشراف ابنه محمد بلو ولآخر غربي تحت إشراف أخيه عبد الله بن فودي وكرس الشيخ الجزء الباقي من حياته في التأمل والدراسة في مدينة سيفاوا (SIFAWA) حتى وافاه الأجل المحتوم في عام ١٨١٧م بعد أن **أرسى قواعد دولة إسلامية استقرت فيها الخلافة وحكم أبناؤه من بعده مدة قرن من الزمان حتى سقوط هذه الخلافة في أيدي البريطانيين في عام ١٩٠٣م .**

لقد لعب أبناء الشيخ وأحفاده دوراً بطولياً ضد الاستعمار الأوروبي الذي تكالب على مناطق الدولة الإسلامية ابتداءً من الربع الأخير للقرن التاسع عشر . **لكن رغم سقوط الدولة عسكرية إلا أن الأسس التي وضعوها والنظم الإ سلامية التي ساروا عليها أدهشت الأوروبيين وجعلتهم عاجزين عن إبدال تلك الحضارة الراسخة بنظم جاؤوا بها فاضطروا للإبقاء عليها ولم يحاولوا التدخل في شئون المسلمين في تلك الدولة الإسلامية فعاشت حضارتهم وازدادت ازدهاراً حتى يومنا هذا .**

الطرق الصوفية في مواجهة الشيوعية الدولية : أنموذجاً

يقول د. محمد علي البار في كتابه (تيه العرب وتيه بني إسرائيل) :

[ورغم أن أي تجمع ديني يعتبر خروجاً عن النظام الشيوعي السائد إلا أن هناك تجمعات خفية يقوم بها المسلمون في الاتحاد السوفيتي ويتدارسون فيها القرآن الكريم والدين الإسلامي .. ووصل تغلغلهم إلى داخل صفوف المنتسبين إلى الحزب الشيوعي السوفيتي ذاته ..

وتتهم وكالات الإعلام الغربية رجال الطرق الصوفية بأنهم المحرك الرئيسي لهذه الصحوة الإسلامية .. وتذكر على وجه الخصوص الطريقة النقشبندية والطريقة القادرية ..

ولا يغيب عن بال القارئ أن العديد من الثورات الإسلامية التي قامت في مختلف نواحي الاتحاد السوفيتي إنما قام بها شيوخ الطرق الصوفية .. ولعل القارئ الكريم يذكر ثورة الشيخ شامل شيخ الطريقة النقشبندية التي قامت في الداغستان في القوقاس واستمرت من عام ١٨٣٢م حتى عام ١٨٥٩م والتي كبد فيها القوات القيصرية خسائر فادحة .. وقد سبقه إلى ميدان الجهاد مفتي داغستان وشيخها شامل القاضي ملا الذي سمي باسم الغازي محمد والذي استشهد في ميدان القتال .

وتتبع الطرق الصوفية الآن وسائل مختلفة لإذكاء روح المقاومة للشيوعية ونشر الوعي الإسلامي .. وتفرض على أتباعها الذكر القلبي وهو قول لا إله إلا الله سراً في القلب مئات المرات يومياً أثناء العمل .. وتطلب من العمال المحافظة على الصلوات في أوقاتها ما أمكن .. فإن تعذر عليهم إقامة الصلوات أثناء العمل فتطلب منهم جمع صلاة الظهر والعصر عند عودتهم من مصانعهم .] .

وللطرق الصوفية ورجالها أعظم الفضل بعد الله في إسلام هؤلاء المغول وتحولهم إلى صف الإسلام والدفاع عنه ونشره .

ولم يكن للعلماء الصوفيين فضل إدخال المغول في الإسلام فحسب بل كان لم أيضاً شرف المحافظة على إسلام هؤلاء المغول وتعميق الإسلام بينهم على مدى العصور وينقل لنا (ابن بطوطة) أثناء رحلته صورة مشرقة بالنور ونحن نرى

العالم (حسام الدين الياغي) وهو يعظ السلطان طرمشرين (سلطان بخارى وما وراء النهر) المغولي حتى يبكيه يقول ابن بطوطة " وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر والظلم .. ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكي .. وكان الشيخ لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً .. ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه " .

كما يصور لنا ابن بطوطة هذا السلطان التقي المؤمن فيقول : (وهو السلطان المعظم طرمشرين وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم ... ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر السلطان (لانشغاله) فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعوها قبالة المحراب حيث جرت عادته أن يصلي فقال الإمام حسام الدين الياغي : إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ فقال الإمام الصلاة لله أو لطرمشرين ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة فجاء السلطان وقد صلى منهما ركعتان وصلى السلطان الركعتين الأخريين حيث انتهى به القيام وذلك في الموضع الذي يكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاته وقام إلى الإمام ليصافحه وهو يضحك وأنا إلى جانب الإمام فقال لي الإمام : (إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيراً من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك) .

وكان يصف لنا ابن بطوطة الإمام العالم (نعمان الدين الخوارزمي) الذي كان يعظ السلطان محمد أوزبك ويعنفه والسلطان محمد أوزبك هو احد السلاطين السبعة الذين حكموا الدنيا آنذاك .. فقد كان ملكه يمتد في أرض روسيا على طول نهر الفولجا .. ويحكم القرم والقوقاس حتى تصل حدوده بحدود مملكة طرمشرين في خوارزم ..

يقول ابن بطوطة عن الإمام العالم (نعمان الدين الخوارزمي) الذي كان يقيم في زاوية صغيرة في مدينة السرا حاضرة ملك السلطان محمد أوزبك .. وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفس شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي إليه السلطان محمد أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه .. ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك .. وفعله

مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف ذلك فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم .

هكذا كان أصحاب الزوايا من العلماء الزهاد والمشايخ لا يلتفتون إلى السلاطين ولا يسعون نحوهم بل السلاطين يجثون على أبوابهم ويسمعون تقريعهم وتأنيبهم بكل أدب وخضوع .

وكان للعلماء ومريديهم دور عظيم .. في دخول المغول في الإسلام وفي تجذيره وتعميقه في نفوسهم .

الطريقة الياسوية :

ولقد كان للطريقة الصوفية الياسوية تأثير خاص على هؤلاء المغول لانتشارها بينهم ومؤسسها الشيخ أحمد اليسوي من سلالة الإمام محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية .

وقد نشأ هذا الشيخ وتوفي في مدينة يس التي عرفت فيما بعد باسم تركستان وهي منطقة في تشيمقند (حالياً في جمهورية قازاقستان) وقد كانت وفاته سنة ٥٦٢هـ . ١١٦٦م .. وكان لتلامذته وأتباع طريقته تأثير قوي على الأتراك والمغول على مدى القرون .. وكان لهم دور كبير في انتشار الإسلام بين المغول القبائل التركية والقازاخية كما كان لهم دور كبير في تجذير الإسلام وتعميقه في نفوسهم .. وفي العصور الحديثة قام شيوخ هذه الطريقة ومريدوها بمقاومة القياصرة بعنف في منطقة قرغيزيا وقازاقستان .. مقاومة شديدة .

وعندما قامت ثورة لينين ضد القياصرة وأعلن وعوده الكاذبة للمسلمين بأنهم سيعطون حريتهم الدينية والسياسية كاملة صدقه كثير من المسلمين .. وانقسمت هذه الطريقة عندئذ إلى فرقتين فرقة صدقت لينين ووعوده الخلابة للمسلمين ووقفت معه لتحارب قوات روسيا البيضاء وتعرف هذه الفئة باسم لاشي.

وفرقة لم تصدق وعود لينين وحاربته منذ أول وهلة كما حاربت قوات القياصرة وكما حاربت قوات روسيا البيضاء وتعرف هذه الفئة باسم الآيشان .. ويتهم مريدوها بالتعصب الديني والنشاط المناهض للسوفييت منذ عام ١٣٣٩هـ .١٩٢٠م .. كما يقول بنجينسن ولومرسييه في كتابهما (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي .) .

وكان مركز الآيشان مدينة أرسلانبار في وادي فرغانة وأتباعها منتشرون في قرغيزيا وأوزبكستان .

أما فئة لاشي التي تعاونت أول الأمر مع لينين مصدقة وعوده الكاذبة فسرعان ما عرفت الحقيقة وتحولوا إلى العمل السري ضد الشيوعية وفي عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) اكتشفت السلطات تنظيماتهم المناهضة للسوفييت وقامت الحكومة بإجراءات تعسفية في ملاحقتهم بعد أن قتلت جميع من قبضت عليهم من

زعمائهم .. ورغم ذلك بقيت هذه الطريقة تعمل سراً لنشر الإسلام وتجذيره ومحاربة الإلحاد والشيوعية . وفي عام ١٩٦٣ اكتشفت السلطات البوليسية السوفييتية تنظيماً سرياً آخر لهذه الطريقة .. وكان الاتهام الموجه إليهم هو إقامة بيوت سرية لإقامة الصلوات ودراسة القرآن والحديث وتنظيم حلقات دراسية والتمهيد لإقامة حكم إسلامي ومحاربة الإلحاد والشيوعية .. وقد حكم على معظم أعضاء هذا التنظيم بالإعدام ..

ولا يزال أتباع هذه الطريقة ينتشرون سراً في جنوب كازاخستان وقرغيزيا وبعض مناطق أوزبكستان ..

الطريقة الكبراوية :

وتنتسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ نجم الدين الكبرى الخيوي نسبة إلى مدينة خيوة الذي عاش في القرن السادس الهجري (٥٤٠هـ .٦٠٦هـ) (١١٤٥م . ١٢١١م) والذي يوجد قبره في مدينة أورغشتي في غرب خوارزم وقد كان لهذه الطريقة دور بارز في تعميق الإسلام وتجذيره في مناطق خوارزم كما كان لهم دور بارز في نشر الإسلام في المناطق الواقعة شمال خوارزم وبين القبائل التركمانية .

وتنتشر هذه الطريقة في منطقة خوارزم الواقعة حالياً في شمال جمهورية أوزبكستان السوفييتية وفي غرب جمهورية تركمنستان كما تنتشر أيضاً في كثير من مناطق جمهورية تركمنستان ..

وقد وفدت القبائل التركمانية من التركستان الشرقية بعد ظهور السلاجقة وهم أيضاً من الأتراك الشرقيين وسكنوا في مناطق خوارزم وطبرستان والديلم وخراسان ..

<u>ويتزعم هذه الطرق الصوفية أربع قبائل كلها تنتمي إلى آل البيت الشريف..</u>

وهذه القبائل الهاشمية العربية هي :

١. قبيلة عطا : وموطنها في شرق تركمنستان في وادي جيحون أموداريا قرب تشاردجو..

٢ـ قبيلة حجا : وموطنها قرب تركمنستان شمال كراسنوفودسك وهي المنطقة التي حكمها أولاد الإمام زيد بن علي بن الإمام السبط الحسين بن على في طبرستان والديلم .. وتوجد هذه القبيلة أيضاً في جنوب تركمنستان قرب مدينة قزوين عرفات .

٣. قبيلة السيد : وموطنهم في غرب تركمنستان جنوب خليج كارابوغاز حيث قامت الدولة العلوية الزيدية الهاشمية في طبرستان ..

٤ـ قبيلـة الشـيخ : ومـوطنهم كـذلك فـي غـرب تركمنسـتان شـمال مدينـة كراسنوفودسك ..

وهذه المواطن معروفة في التاريخ الإسلامي بأنها كانت موطن الدولة العلوية في طبرستان والديلم والتي قامت في أيام العباسيين بعد مقتل الإمام زيد بن علي زين العابدين ثم مقتل ابنه الإمام يحيى بن زيد .. والتي كان للإمام حسن الأطروش دور كبير في تأسيسها .. وفي نشر الإسلام وتجذيره في تلك المناطق..

ويقول كتاب (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي) للمؤلفين الفرنسيين بنجينسن و لومرسييه **إن هذه القبائل الأربع تعتبر القائدة والرائدة للنشاط الديني المتمثل في الجماعات المسلمة التي واجهت الروس القياصرة بعنف وضراوة في الحرب التركمانية التي امتدت حتى عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٢م) ثم قامت هذه القبائل بمحاربة لينين والدعوة البلشفية وواجه التركمان حرب إبادة شديدة من النظام القيصري ثم البلشفي ولولا الخصوية العالية التي خصهم الله بها لاندثروا** .

ولا يزال لهذه الطرق دور كبير في نشر الإسلام وتجذيره في مناطق التركمنستان وهم يواجهون حملات الإبادة والسجن والتشريد دون أن تشير إلى ذلك أجهزة الإعلام الغربية والتي يوجهها ويملكها اليهود ..

الطريقة النقشبندية :

تعتبر الطرق الصوفية وخاصة الطريقة النقشبندية أكثر الفئات الإسلامية صموداً في وجه الطغيان الروسي القيصري ثم الشيوعي البلشفي .. ويطلق الروس على المؤسسات الصوفية اسم الإسلام الموازي والمقصود بذلك الموازي للإسلام الرسمي المحدود الذي تسمح به السلطات السوفيتية .. ويعتبر الإسلام الموازي كما يقول مؤلفا كتاب (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي) هو العنصر الديني النشط الذي تخشاه السلطات الروسية أشد الخشية لأنها تعتبره الأكثر رجعية وتمسكاً بالإسلام .. ومقاومة للروس وللشيوعية .

وتعتبر الطريقة النقشبندية من أوسع الطرق الصوفية انتشاراً في الاتحاد السوفيتي وربما أكثرها أهمية ..

لقد تأسست هذه الطريقة على يد الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند في مدينة بخارى الذي يقول بانتسابه إلى أبي بكر الصديق .رضي الله عنه .ولقد ولد هذا الشيخ عام ٧١٨ هـ (١٣١٧م) وتوفي سنة ٧٩٢هـ (١٣٨٩م) بعد أن ترك أتباعه ينتشرون في آسيا الوسطى والقوقاس وتتار الفولجا ووصلت طريقته إلى الهند والصين ثم امتدت إلى الشرق الأوسط ذاته ..

ولقد شكلت الطريقة النقشبندية المحرك الرئيسي لقوى الجهاد الإسلامي في وجه المستعمر الكافر الروسي في العهد القيصري ثم في العهد البلشفي الشيوعي وامتد جهاد شيوخها ومريديها عبر مئات السنين وعلى امتداد الأراضي الواسعة من القوقاس في جبال الداغستان والشاشان غرباً .. إلى بخارى وقرغيزيا على حدود الصين شرقاً .. واشتهرت بصورة خاصة مقاومة المريدين في القوقاس ..

ولقد أدخل الشيخ منصور أشرمه هذه الطريقة إلى القوقاس في القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) .. وكان هذا الشيخ هو أول من قاوم الغزو الروسي على القوقاس .. وقد قام مع مريديه بإفناء فرقة روسية كاملة على نهر سوبخا سنة ١٧٨٥م (١٢٠٠هـ) واستمر في الجهاد حتى أسر في ميدان القتال عام ١٧٩١م (١٢٠٦هـ) حيث أودع السجن في قلعة شلوسليبرغ وهناك وافته المنية عام ١٧٩٣م (١٢٠٨هـ) ثم ظهر بعد ذلك الشيخ النقشبندي خاس محمد أفندي الباراغلاي وتولى الجهاد ضد الروس حتى استشهد ثم تولى بعده الجهاد تلميذه الشيخ جمال الدين الكازيكوميخي .. كان الشيخ جمال الدين هذا أستاذاً ومرشداً للإمامين العظيمين الملا الغازي محمد الكمرواي والشيخ محمد شامل الكمراوي الذين قاما بثورة الداغستان الشهيرة مع تلميذهما الأمير حمزة الخنزاجي والتي استمرت من سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) إلى عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) .. وقد استشهد الملا الغازي محمد والأمير حمزة في ميدان القتال ثم أسر الشيخ محمد شامل عام ١٨٥٩م ..

ومع إطلالة القرن الرابع عشر الهجري قامت مرة أخرى ثورة المريدين من الطريقة النقشبندية وبعد معارك طاحنة مع القوات الروسية تم إخضاعها عام (١٣٠٥هـ) (١٨٨٧م) .

أما في بلاد الشاشان فقد دخلت الطريقة النقشبندية أثناء إمامة الشيخ محمد شامل في الداغستان على يد أحد نوابه وهو الشيخ تاشو حجي وذلك سنة (١٢٤٦هـ) (١٨٣٠م) وقد اشتهر الشيخ تاشو حجي بأعماله البطولية الباهرة في مقاومة الغزو الروسي الكافر ..

وفي آسيا الوسطى كان النقشبنديون كما يقول لومرسييه وبنجنسن هم المسئولون عن ثورة المسلمين ضد الروس ... في وادي فرغانة (مدينة أنديجان) (١٣١٦هـ) ١٨٩٨م .. وكان زعيم هذه الثورة الشيخ النقشبندي المجاهد الآيشان (وهو لقب بمعنى الشيخ) مادالي .. وقد استشهد هذا الشيخ أيضاً ..

وفي قرغيزيا قاد رجال الطريقة النقشبندية الجهاد ضد الغزاة البوذيين الأويروت وذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين كما كان لهم دور بارز في جهاد الروس الغزاة أثناء الحكم القيصري ثم أثناء الحكم البلشفي ..

وفي تركمنستان كان لشيوخ الطرق المختلفة (الياسوية والكبراوية والنقشبندية) دور بارز في المعارك الطويلة التي دارت بين التركمان في أواخر القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) والتي انتهت باستيلاء الروس على تركمنستان سنة ١٢٩٧هـ (١٨٨٢م) ويقول بنجنسن ولومرسييه " إن معظم قادة الثورة البسمشتية كانوا من المريدين الذين جاهدوا بقوة السلاح الجيش الأحمر من سنة ١٩١٨م إلى ١٩٢٨م .. قد اشتهر من هؤلاء الشيوخ إسلام قرباشي وملا دهقان وكورشيرمات ومادامين ودجانبيك " .

وعندما احتلت القوات الروسية القوقاس عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) بعد هزيمة الشيخ محمد شامل الكمراوي أقامت هذه القوات المذابح والمشانق لمشايخ الطريقة النقشبندية ومريديها .. واستطاع بعضهم الفرار إلى الدولة العثمانية .. ورغم هذه المذابح فقد بقيت هذه الطريقة تجاهد في الشاشان تحت قيادة الشيخ تاشو حجي تلميذ الإمام محمد شامل ثم بعد استشهاده تحت قيادة تلميذه الشيخ بشير الكوميكي

الداغستاني .. وقد أسر الشيخ بشير ونفي إلى سيبيريا حيث وافته المنية هناك " ولكن سلالته المعروفة باسم سلالة أكساي تولت مشيخة الطريقة النقشبندية في القوقاس " الشمالي وواصلت الجهاد ضد الروس وخاصة في الشاشان .. وقام خلف الشيخ بشير وهو الشيخ اليخان كوميكا بمواصلة الجهاد ولكنه أسر ونفي أيضاً إلى سيبيريا حيث توفي هناك ثم ظهر المرشد الثالث لسلالة أكساي وهو الشيخ دني أرسانوف وانتقم لشيخه الشيخ اليخان فقتل الضابط الروسي الذي نفى الشيخ اليخان . ثم كون فرقة لقتال الروس قامت بعدة معارك ناجحة على نهر ترك .. واستشهد عام ١٩١٧م (١٣٣٦هـ) .

وفي نفس العام اختار علماء الداغستان الشيخ نجم الدين غوتسو إماماً للداغستان والشاشان وقاد هذا الإمام المجاهد الثورة ضد الروس القياصرة والبلاشفة من عام ١٩١٧م إلى أن أسر في ميدان القتال عام ١٩٢٥م .. واشتهر في الجهاد معه مجموعة من المشايخ وهم أوزون حجي ومحمد البلوكاني ودرويش محمد الأندى وإبراهيم حجي الكونتشري وسيد أمين الأنسلطاوي وسراج الدين حجي .. ولقد ذاعت بصورة خاصة بطولات أوزون حجي الذي كان شيخاً كبيراً .. والذي توفي أثناء الثورة عن عمر يناهز التسعين وقد استشهد معظم هولاء المشايخ في ميادين القتال أما نجم الدين غوستو وسيد أمين فقد أسرا في المعركة الأخيرة عام ١٩٢٥م وتم تنفيذ حكم الإعدام بهما .

وتبع ذلك قمع طويل قامت به السلطات الروسية البلشفية كما يقول بنجينسن ولومرسييه سالت فيه الدماء أنهاراً .. وصفيت كل المحاكم الشرعية ونزع السلاح من الأهالي وأوقف معظم علماء الدين ومشايخ الطرق الصوفية حتى أولئك الذين لم يشتركوا في ثورة نجم الدين غوستو وقامت السلطات باعتقال المرشد (علي ميتانين) عام ١٩٢٤م وأعدم عام ١٩٢٧م بعد محاكمة صورية .. واعتقل شيخ الطريقة النقشبندية في الشاشان عام ١٩٢٨م وهو الشيخ سالسايانداروف وأعدم عام ١٩٢٩م .. وفي نفس العام أعدم أيضاً الشيخ النقشبندي علي الآكوشي ..

وقامت السلطات السوفييتية بما أسمته حركة التطهير الكبيرة عام ١٩٢٨م ضد علماء الإسلام ومشايخ الطرق الصوفية وأحدث ذلك انتفاضة وثورة عظيمة

كافح فيها مريدو الطريقتين النقشبندية والقادرية جنباً إلى جنب .. وكان ممن استشهد في هذه المعارك الشيخ شتيا إيستا مولوف والشيخ أرسانوكاي خيضر وهما من الطريقة النقشبندية أما في بلاد الأينغوش فقد قتل تسعة من أبناء مؤسس هذه الطريقة وتسعة من أحفاده وهم يحملون السلاح كما يقول (بنجينسن ولومرسييه) ..ولم تتمكن السلطات السوفييتية من قمع هذه الثورة إلا في عام ١٩٣٦م لكنها عاودت انطلاقها عام ١٩٤٠م مما أدى إلى المذابح الرهيبة في الشاشان وإلى نفي هذه الشعوب بأكملها إلى مجاهل سيبيريا ..

وقد استطاع عدد من المريدين القادريين الذين اشتركوا في الثورة أن يعتصموا بالجبال العالية حتى عام ١٩٤٧م عندما استطاعت السلطات السوفييتية القبض على الشيخ قريش بلهورييف آخر فرع في سلالة بطل حجي بلهورييف ونفي الشيخ قريش إلى سيبيريا ..

وفي أثناء السبي لشعوب الشاشان وأينغوش في مجاهل سيبيريا قام العلماء وخاصة طريقة عويس حجي التي أسسها رجل من الشاشان يدعى (عويس حجي زاغييف) بجهود جبارة لإبقاء جذوة الحماسة الدينية والمحبة بين الأفراد الذين يواجهون الموت في مجاهل سيبيريا ..

ويقول بنجينسن ولومرسييه" لقد أعطى السبي إلى مجاهل سيبيريا نتيجة لم تكن في الحسبان ذلك لأن العلماء كانوا الرمز الوحيد للأمة في معسكرات سيبيريا ومنفى السهوب الكازاخية .. وكانت دافعاً أساسياً لحب البقاء عند جميع المسبيين ويعترف بهذه الحقيقة كل الاختصاصيين السوفييت ويقول أحدهم وهو د. كليموفيتش : " أثناء الحرب العالمية الثانية وبسبب الظروف السائدة بعدها أحيى رؤساء جماعات المريدين الاعتقادات الدينية .. ومما يوضح سبب هذا البعث الديني تعاسات الحرب وعبادة الشخصية التي تفرضها الأنظمة الشيوعية والخرق الشرس لسياسة لينين حول القوميات في حالة التشتشين والأنغوش " .

ولقد تكونت طريقة عويس حجي القادرية عام ١٩٥٥م في أثناء العيش في مجاهل سيبيريا وكانت عاملاً مهماً في إذكاء الروح الدينية والمحافظة على العقيدة الإسلامية وروح الإخاء والمحبة بين الشعوب المسبية في فيافي سيبيريا وقد سميت

الطريقة في الأدب السوفييتي باسم " أخوية القلنسوات البيض " لأن رجال هذه الطريقة يلبسون قلنسوات بيضاء من الفراء أثناء الذكر الجماعي ..

ولم يكن تأثير هذه الطريقة مقصوراً على شعوب الشاشان وأينغوش ولكن أثرها امتد إلى شعوب كازاخستان وقرغيزيا الشمالية ..

وعندما عادت شعوب الشاشان وأينغوش إلى وطنها وجدوا كل مساجدهم وجوامعهم مهدمة كما يقول بنجينسن ولومرسييه ولقد ظلت جمهورية الشاشان أينغوش حتى عام ١٩٧٨م الإقليم المسلم الوحيد في الاتحاد السوفييتي الذي أجريت فيه التجربة الجذرية القاضية بمحق الدين الإسلامي من خلال هدم وحل كل مؤسسات العبادة ..

ولكن هذه الإجراءات العنيفة ضد الإسلام فشلت فشلاً ذريعاً بفضل الله أولاً ثم بفضل جهود العلماء المخلصين ..

الطريقة القادرية :

وتتركز هذه الطريقة في عدة مناطق في القوقاس وآسيا الوسطى .. وتختلف الطريقة القادرية عن الطريقة النقشبندية بأن القادرية يعتمدون الذكر العلني بينما يعتمد النقشبنديون الذكر القلبي الخفي مما جعل الروس يطلقون عليهم اسم (شيبتوني) أي المتمتمين بينما يطلق الروس على الطريقة القادرية اسم "ذيكريستي" أي أصحاب الذكر (العلني) .

وقد ظهر أول مرشد قادري في القوقاس حوالي سنة ١٨٥٠م ويدعى كونتاحجي الذي ذهب إلى بغداد لأخذ الطريقة القادرية من شيوخها هناك . وانتشرت طريقة كونتاحجي في الشاشان حيث لاقت نجاحاً كبيراً هناك .. " وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي قام القادريون بنشر الإسلام بين الأينغوشي الذين كانوا لا يزالون وثنيين " كما يقول كتاب المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي . وسرعان ما انضم مريدو الطريقة القادرية إلى مريدي الطريقة النقشبندية في مواجهة الكفار الروس واشتركوا معهم في معاركهم الجهادية . وقامت السلطات الروسية باعتقال كونتاحجي عام ١٨٦٤م وتوفي في السجن عام ١٨٦٧م وعاملت السلطات الروسية مريديه بكل شدة وعنف .

ويقول المؤلفان الفرنسيان لكتاب " المسلمون المنسيون في الإتحاد السوفييتي " ما يلي : " واشتركت الطريقتان النقشبندية والقادرية في الثورة الكبرى في الداغستان والشاشان خلال عامي ١٨٧٧و ١٨٧٨م .. وواجه هؤلاء المريدين أشد أنواع البطش القيصري وسبي آلاف المريدين .. وشيوخ الطريقة الذين لم يقتلوا في ميادين القتال شنقوا في الميادين العامة . والغريب في الأمر أن محنة ١٨٧٨م بدلاً من أن تشكل بداية انحطاط الطرق الصوفية في القوقاس شكلت نقطة انطلاق لبعثها ومد نفوذها " حتى يقول كاتب تشتشيني معاصر " لقد كان جميع أفراد الشعب البالغين تقريباً في الشاشان . أينغوشيا ينتمون إلى إحدى الطريقتين القادرية أو النقشبندية خلال الفترة الطويلة الممتدة من عام ١٨٧٧ إلى ١٩١٧م " .

ولقد استقطبت الطريقة القادرية الطبقات الشعبية بينما استقطبت الطريقة النقشبندية أغلب علماء الدين والمثقفين وبينما كانت الطريقة النقشبندية أكثر استعداداً للصراع المكشوف ضد الروس كانت الطريقة القادرية أميل للصراع السري .. واشتركت كلا الطريقتين في الصراع الدموي الرهيب ضد الروس الكفار في جميع العهود القيصرية والبلشفية على حد سواء الذي استمر حتى ١٩٤٧م . وتشعبت الطريقة القادرية بعد موت كونتاحجي إلى أربعة فروع (ورد) وهي :

١. الورد النظامي . الذي ظل يحمل اسم كونتاحجي وانتشر هؤلاء في الشاشان وأينغوشا والداغستان .

٢. طريقة بطل حجي بلهورييف ومركزها في بلاد الأينغوش ثم انتشرت في الشاشان والداغستان .. وهي تطبق حرفياً أحكام الجهاد ومثله العليا ولذا قتل معظم قادتها في المعارك أو نفذت فيهم السلطات القيصرية ثم البلشفية أحكام الإعدام .. وهم شديدو التمسك بالشريعة وآدابها وبروح الجهاد ويتحاشون الاختلاط بغير المؤمنين .

٣. طريقة بامات حجي ميتانيف ومركزها أيضاً بلاد الأينغوش .

٤. طريقة تشيم ميرزا وتتركز في مقاطعة شامي من بلاد الشاشان .

خاتمة

هذا البحث كتب استرسالاً فلم نتقيد فيه بكل الضوابط الإجرائية المطلوبة في البحوث وقد استهدفنا فيه بيان موقع التصوف من الإسلام واختيار عدد من النماذج عن الجهاد في سبيل الله .

لقد حاولنا أن نرسم صورة مشرقة للتصوف فمن كان منتسباً إلى التصوف فهذا هو الأنموذج الصوفي لمن أراد أن يقتدي ومن لا فلا يبهرج على نفسه قال الشاعر الصوفي الإمام شرف الدين البوصيري :

والدعاوي ما لم يقيموا عليها بينات أبناءها أدعياء

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .